المرأة فى عصر الرينسانس

يقول بوركارت فى فصل بهذا العنوان : « نظرة الارتفاع والسمو بعصر « الإحياء » ، تفرض اعتبار المرأة مساوية للرجل » . ويرفض المؤرخ الفرنسى المعاصر « ديلومو » هذا الادعاء قائلا : « إن كان صبيان الطبقة الميسرة أخذوا طريقهم رويدًا إلى المدرسة ، فالأغلب أن البنات لبثن بالبيت ، ولاشىء يبرهن أن المساواة بين الجنسين كانت قائمة ، ومدينة ألكالا « بأسبانيا » أول مدينة أوربية بها مدرسة للإناث ، وهذا منذ مطلع القرن السادس عشر ولم يَسدُ تعليم الإناث إلا فى القرن السابع عشر ، وبفضل راهبات « الأورسولين » . ثم يناقض ديلويو نفسه بقوله عقب هذا : « ومع ذلك ، فإن المتعلمات فى القرن السادس عشر تفوق عددهن عن أى عصر سابق » وعذره فى هذا التناقض ربما كان لاعتباره أولئك المتعلمات درسن فى منازلهن !

ويقول جاكوب بوركارت : « ولا معنى للقبول بما يروق لبعض البحاثة من « النكش » على مقالات ومقولات يسخر الرجال فيها

بالجنس اللطيف . ويحسن ألا نحمل كلام « الأريوستى » الشاعر محمل الجد فى ادلائه إلى صاحب له بأنه « يعتبر المرأة طفلاً كبيرًا ، يصعب التحكم فيه . ويجب على الرجل أن يعرف كيف يسلك فإن البون شاسع بين المرأة والرجل » . ولاشك فى هذا ، إنما بوركارت يتحدث عن « المساواة بين المرأة المثقفة ، على مستوى واحد مع الرجل ، ونسمى هذا ونعرفه بالاتحاد بين ذكاءين ، وروحين ، عندما أصبح حقيقة بالزيجات الناجحة بأوروبا فيما بعده » .

كانت تربية الأنثى فى الطبقات العليا على مستوى تربية الرجل ، فلم يتردد إيطاليو الرينسانس فى إعطاء أبنائهم وبناتهم ذات الدراسات الأدبية بل اللغوية . ولقد عرفوا بنات من أسر الأمراء بَلَغْنَ أرفع مدى فى إتقان اللغة اللاتينية . وكانت النساء يشاركن على الأقل فيما يطالب به الرجال من مؤلفات حتى يجئ الحديث بين الرجل وقرينته قيمًا ومناسبًا .. وعنيت النساء بالشعر ، وقرضه فيما يعرف « بالكانزونى » . « والصونته » والارتجال . والواضح أن شعرهن الغرامى مثلا لم تظهر عليه خاصية نسائية ، بل كُنّ فيه كالذكور . أى إنهن لايخفين عاطفتهن احترامًا للأنوثة ، حتى لاتكاد تصدق أنه قريض أنثوى ، إذا غاب عنك اسم الشاعر ، وتميزت المرأة الإيطالية عن غيرها من نساء أوربا ، **لأن هؤلاء الاخيرات لم يعرفن المساواة بالرجل إلا بعد قيام الإصلاح البروتستانتى** .

ولقد بلغ من تربية المرأة فى عصر الرينسانس أن ظهرت من بينهن بطلات فى أكثر من درب فلا فرق فى هذا بين الذكر والأنثى ،

فتربية المرأة فى ذلك العصر اتجهت إلى نوع من « الاسترجال » . يكفى أن تطالع فى قصائد الشاعر « الاريوستى » صفات بطلاته ، ومن أمثلة هذا الاسترجال : كاترين سفورزا ، التى قامت بعد مقتل زوجها بالدفاع عن مدينة فورلى ، أولا ضد حزب قتلته ، وفيما بعد ، ضد تشيزارى بورجيا . ولقد تغلب ذلك الوحش عليها ، ولكن شهرتها بقيت لامعة حتى أطلق عليها مواطنوها لقب « سيدة إيطاليا الأولى »[1] .

ولنعد إلى المؤرخ الفرنسى المعاصر « ديلومو » الذى ناقض بوركارت فى حكاية المساواة بين الجنسين . فها هو ذا يضرب الأمثال ببنات مؤلف « الأطوبيا » توماس مور ، وشقيقات « هيومانى ورياضى » من نورمبرج . وكن من أشهر النساء العالمات فى زمانهن ، ضليعات فى اللاتينية ومطالعة الإغريقية ، ثم يعود إلى نساء الرينسانس العالمات فى زمانهن « ڤتوريا كولونّا » أميرة بسكارا ، كانت شاعرة فَذَّة امتدحها ميكلانجلو . ثم يقول : وهناك شهادة بأن

---

(١) وعندما اختزت ثلاث ملكات من التاريخ المصرى ، تدارست طبائعهن وأعطيت قصب السبق للصعيدية « حاتشبسوت » لا انتقاصاً من « أم خليل » - (شجرة الدر) وما صنعته بعد وفاة زوجها السلطان ، من إخفاء موته ، وتقليد توقيعه لاستمرار مواقع الدفاع ضد الصليبيين . ولا من « بنت الزمار » - (كليوباترا الكبرى) . كل ما فى الأمر أنى لاحظت فى سلوك هاتين الملكتين العظيمتين ناحية من نواحى الضعف الأنثوى : غيرة شجرة الدر من زواج بعلها عليها ، وتدبير قتله . وسلوك كليوباترا فى غرامياتها ، حتى وهى شابة يافعة ، وقد أودى بها ، وبعشيقها مارك أنطونيوس حيال انتصار الإمبراطور عليهما فى المعركة البحرية المشهورة .

النخبة النسائية نفذت إلى الثقافة ، قال عنهن واحد من رجال القانون فى القرن الخامس عشر : « لم أك أتصور ، حتى تحققت ، من أن نساء فلورنسا على علم بفلسفة الأخلاق ، والطبيعة والمنطق والبلاغة » . وأول صالون أدبى افتتح فى باريس كان فى منتصف القرن السادس عشر وفى بيت نبيل من بلاط الملكة كاترين دى مديتشى . وكان هذا النبيل قد عاش فى إيطاليا وتراسل مع ايراسم الفيلسوف . إنما زوجته هى صاحبة ذلك الصالون الشهير . وكانت حسناء ذكية مثقفة ، هى وبناتها : كامى ، ولوكريسيا ، وديان . وكن موضوع قصائد الشعراء .

وطبيعى أن أولئك النساء يَهِمْنَ بالفن . فإزابلا ديستيه كانت حامية المصور « مانتنيا » وقربت ليوناردو داڤنشى ، وتبادلت الرسائل مع أهم مصورى العصر : بيروجينو وبلينى ولورنزوداكوستا ، وكوريوجيو ، وتسيانو . كما دعت ديان ده بواتييه إلى قصرها بفرنسا بنڤينوتو تشلينى . وما من شك فى أن التطور الفلورنسى ، المتنقل إلى كافة أوروبا ، كان للنساء فيه أدوار هامة .

ولقد آن التحدث عن كتاب مشهور ، منذ عصر الرينسانس إلى اليوم عن آداب المجتمع وفضل وجود النساء كعنصر أساسى لرهط متحضر . ألا وهو كتاب « رجل البلاط » (الكورتجيانو) تأليف بالتساوى كاستليونى . ويمكن وصفه اختصارًا بأنه مربى « أولاد الناس » ، وأعنى بهذا المصطلح المملوكى ، أبناء الطبقات الممتازة بالسلطان أو بالثراء أو بالفكر والعلوم الصادرة عنها . والفنون التى

تنطلق من أعماق الشعور : مؤسسة على فكرة مستنيرة فهو كتاب تربوى أبعد مايكون عن المدرسية ، وإن أتخذ فى بعض فصوله شكل الحوار ، وحديثه يتناول قواعد الأدب الاجتماعى ، واللباقة ، والقيافة . مؤلفه دبلوماسى من مواليد مانتوا ، تمرس فى بلاط إمارة أوربينو ، وكانت هذه الإمارة سامية المقام فى حركة الاحياء بفضل أميرها الدوق فدريكوردا مونتيفلترو نصير الهيومانزم ، وحامى رجال العلم . والمدينة مسقط رأس رافائيل والمعمارى برامانتى . وقد أدرك كاستليونى قيمة هذا الوسط العالى ، فألف كتابه للطبقة المرفهة التى تميزها هذا البلاط . وبذلك كان يمثل حصافة الأرستقراطية ، وكان أثر كتابه واضحًا على نبلاء إيطاليا وخارج إيطاليا ، فى التعريف بالقيم الجديدة للحضارة : **التعليم والتربية والإقبال على الفنون والآداب ، والامعان فى احترام المرأة** . وقد صدر لكتابه ١٦ طبعة إيطالية (مابين عام ١٥٢٨و١٥٨٧) وست طبعات من الترجمة الفرنسية (ما بين ١٥٣٧ و١٥٩٢) وترجم إلى الإنجليزية سنة ١٥٦٢ ، ونشر فى عصر الملكة اليزابيث الأولى : **وما برح الكتاب معروفًا ومقروءًا إلى اليوم** .

كان كاستليونى من أتباع الأفلاطونية الجديدة ، وكان جنديًا شجاعًا ، وفنانًا صديقًا لرافائيل فى روما ، وعلى اتصال بالدوائر الهيومانية التى تحيط بالبابا ليون العاشر . وعندما توفيت عقيلته سنة ١٥٢٠ ، تحول إلى الرهبنة ، وأوفده البابا إلى أسبانيا ، « قاصدًا رسوليًا » وتوفى فى طليطلة عام ١٥٢٩ ، أى بعد عامين من إصدار كتابه (ولد كاستليونى فى مانتوا عام ١٤٧٨) .

كانت الأفلاطونية الجديدة تنادى بحقّ الجمال والحب . فهى الأصل فى وضع المرأة موضع التبجيل فى حضارة الغرب . وإن كان الفضل الأسبق للفيلسوف فتشينو ، ويتضح ذلك من تعليقاته على « مأدبه أفلاطون » ثم على « فيدرا » . ومذهب الحب فى تعليقاته يعرفه بأنه « لب التَّوق (أو التعلق) بالجمال » . وقال كذلك : « نحن لانرى الروح ، فلا نستطيع أن نشهد جمالها إلا ممثلا بجسدها . فالجسد صورة أو ظل للروح ، والحُسن شعاعة من الخالق ، ينبوع أبدى للجمال » .

وقال كاستليونى ، وهو تلميذ فتشينو : « الجمال فى الجسد » وأكثر منه فى سيماء البشر . وبهذا يتمثل التَّوق والرغبة التى نَصِفُها بالحب . والحب هو فضل الخالق سبحانه ، وكأنه ضوء الشمس منعكسا حيث تقع أشعتها ، فتضىء لطفه وروعته . والطيبة صنو الإيناس ، كما هى قرينة « الجمال » ومن الواضح أن الأفلاطونية الجديدة فى عصر الإحياء قد نقلت الفكرة الأفلاطونية الأصيلة إلى المرأة .

* * *

تدين الإيطاليات لعصر الإحياء بالكثير.. فقد كان العصر الوسيط قاسيًا على بنات حواء ، فهو العصر الذى لم يغتفر للمرأة خطيئتها الأولى فى جنة الفردوس ، ورأى فيها **العدو الأول للرجل** . وصفها اسكولائى – فى القرن الثالث عشر– بأن عقليتها وقيمتها الأخلاقية لاتتميز عن الأطفال : فخرها وعزتها فى الخضوع لإرادة

الرجل ، وأكثر من هذا أن تلتزم الصمت ، قال دانتى وهو العليم بالنساء عِشْرَة ، وإنصاتًا لحديثهن : « إنهن كثيرات الكلام فى براءة .. ثم أخذ يتحدث بعضهن إلى البعض ، كالمطر المنهمر مختلطا بالجليد ناصع البياض . ولهذا خُيل إلىَّ أن حديثهن يختلط بالتنهدات .. » امتدح دانتى فيهن فضائل العقلانية علمًا وحكمة ، كياسه ولطفًا فلا عجب ودانتى مجد بياتريس كما أن پترارك تغنى فى شعره بمعشوقته الفقيدة لاورا .

أما بوكاتشيو فى « الديكامرون » فيقول « بأنهن من غير جنس الملائكة ، يخشين الموت بالطاعون المنتشر. اجتمعن فى ركن من الكنيسة ، فى ذلك العام الأسود الطالع ، حديثهن لايزيد على أنهن يطلبن الحياة . ووفد على الكنيسة رهط من شباب الطبقة الممتازة ، لا ليؤدوا صلاة ، بل بحثا عن صديقاتهم . واتفق مجموعهم على النزوح عن فلورنسا احتماءً بالريف ، فى انتظار توقف الوباء الوارد » .

وتحولت فلورنسا فيما بعد من مدينة حصينة بقلاعها ، وضيق مساكنها ، إلى مدينة القصور الفسيحة ، كما انتشرت الفيلات فى رياض المدينة ، تحيط بها رياض غنّاء .

لم تك فلورنسا وحدها فى هذا التحول ، وإنْ كان لها فضل السبق على مدن الشمال والوسط الإيطالى فى أحياء هذه الحضارة التى لم يحلم بها أهل القرون السالفة منذ تفكك الإمبراطورية الرومانية .

بيكوديلا ميراندولا

ترددت فى اختيار واحد من أهل الفكر والفلسفة فى عصر الإحياء ، وأمعنت النظر فى ثلاثة أسماء ممن تنطبق عليهم صفة الهيومانية . والثلاثة الذين وضعتهم على رأس الهيومانية هم مارسيليو فتشينو ، وبيكوديلا ميراندولا ، ونقولا دى كويس . وقضى الأمر باختيارى لبيكو منذ أن نقلت وصفا له بقلم شاعر من أصدقائه ، عدّلت فيه بما لاينبئ عنه بالذات . وبدأت تأبينى لأخى وصديق العظيم الدكتور محمد كامل حسين بقراءة ترجمتى المعدلة ، وواصلت تأبين محمد كامل حسين بعد أن كشفت عن مصدر ترجمتى ، وهو وصف لهيومانى عظيم من ذلك العصر الباهر .

إن اشتهار فكرة « الرجل العالمى » لوصو أنيڤرسالى .. يعود الفضل فيها إلى ليوناردو دافنشى ، أما الرجل الذى ساهم فى نشرها فهو مؤلف كاستليونى كتاب « رجل البلاط » .

كان بيكو واحدًا من الهيومانيين القلائل الذين كادوا يقعون تحت أيدى محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة . فى حين أن أغلبية الهيومانيين

تقبلوا الدجماطية الكنسية ، توقيًا من هذه المحكمة (الإنكيزيسيون) .

كان بيكو خصمًا للفلكيين المنجمين يقول بأن أصحاب النجوم هؤلاء يؤمنون بقوة الأفلاك ، لأن الكواكب تحمل أسماء آلهة وثنية ، وكانوا يعتبرون فى العصور القديمة أن تلك الأوثان تتحكم فى حياة البشر . وكان تنديده بهم نتيجة تسجيله فى أجندته للوقائع التى يتنبأ بها المنجمون . فانتهى إلى أنها لم تصدق إلا سبع مرات ، وخابت فى أربعين ومائة مرة ، وقال : « إذا كان التنجيم علمًا فلماذا لايشعرنا باتفاقهم : لقد اعتمد هؤلاء على جداول لحركة الكواكب ، ولكن هذه الجداول كانت معروفة من القدم بأنها مغلوطة » .

ومناقشة بيكو هذا الموضوع لم تعتمد على مجرد ملحوظات ومشاهدات . فإن مفتاح حجته وبرهانه كان قائما على « أن الله أعطى الإنسان القدرة على اختيار طريقه ، وقضائه وقدره . فكيف تكون هذه الكواكب – وهى مجرد أحجار صخرية بمسميات وثنية – هى القادرة على التأثير فى عطية الله للإنسان » . كان موقفه من التنجيم ثابتًا ، بخلاف فتشينو شريكه الأكبر ، فإنه لم يرفض تمامًا فكرة تأثير الكواكب فى حياة الإنسان . ومع ذلك فقد أشار إلى أخطاء هؤلاء المنجمين .

أما « دى كويس » فهو من الهيومانيين الجرمان العظام ، وقد امتاز هو والهيومانى الأسبانى يوحنا سيجوفيا برفض فكرة الصليبيين فى محاربة المسلمين ، والبحث عن نقاط توصل إلى اتفاق مع المسلمين .

وفكرا فى عقد مؤتمر ، وطالع كل منهما القرآن على أساس أن وعى مافيه هو أهم الخطوات فى سبيل جمع هذا المؤتمر المسيحى – الإسلامى .

قال دى كويس إن الجهل يورث الخطل ، والشر . وأخذ يبحث فى ديانة المسلمين ، حتى بلغ حقيقة الإنجيل فى القرآن . ويعنى بهذا إيضاح ماوراء المناهضة والاختلاف ، مادام القرآن والإنجيل قائمين على قاعدة مشتركة . ولكن أول ماصدمه فى هذا البحث هو رفض القرآن لألوهية المسيح وصلبه ، وقيامته . فيكون معنى هذا رفض القرآن لطبيعة المسيح ، أى رفض عقيدة المسيحيين . واضح عند المسلمين بأن المسيح ابن سيدتنا مريم ، وأنه من روح الله . ولكنه إنسان كبقية البشر ، ونبى من أنبياء الله . والمسلمون يعترفون بنبوة غير قليل من أنبياء « الكتاب المقدس » فى العهد القديم ، ومن أهمهم ، بعد موسى وإبراهيم ، عيسى بن مريم البتول .

وكان مراسله الأسبانى يوحنا سيجوفيا قد أتم قبل وفاته عام ١٤٥٨ ترجمة القرآن . ثم حدث عقب ذلك سقوط القسطنطينية بجيوش السلطان العثمانى محمد الفاتح . وزاد ذلك من هم دى كويس ، وكان متفقًا مع القس الأسبانى على ألا سبيل إلى الاجتماع بالمسلمين قبل فحص نص القرآن وفهمه الصحيح . وأهم من ذلك أن دى كويس ، بوحى إنسانيته وهيومانيته يرى أن من يبحث عن اتفاق مع عدو يجب ألا يغض من مميزاته .

وقررت أكاديمية فلورنسا (التى أنشأها كوزيمودى مديتشى أميرها) بحث الوصول إلى «توليفة» فلسفية تحقق التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية، على أن يتم ذلك متفقا مع كافة التجارب الدينية.

ولكن مارسيلى فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩)، وتلميذه پيكو ديلامير اندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من دى كويس حين قال هذا الأخير: «الكتب المقدسة، والفلسفات تؤكد أمرًا واحدًا بطريقتين مختلفتين وأضاف قائلا بأن «الإيمان بالخالق جلَّ وعلا، أمر طبيعى فى الإنسان، كالصهيل للخيل، وأنه عندما يتكلم عن الدين يعنى غريزة طبيعية جامعة لواقع واحد، وهو أن ابن آدم يدرك ويعبد عناية ربانية هى صاحبة الوجود». وحاول فتشينو أن يستخرج دينا علمانية من الأفلاطونية قديمها وجديدها، ومن المسيحية وكان ذكاء پيكو ديلا ميراند ولا يدفعه إلى النظر فى المنابع الإغريقية، والعبرانية والمسيحية والإسلامية وبذلك «نكون قد جمعنا بين كل الفلاسفة دون الاستئثار بواحد منهم، بحثًا عن التوافق الروحى والكونى الذى نصل به إلى حقيقة صوفية كونية، لاعلاقة لها بزمان بعينه».

الكونت چوفانّى پيكوديلاميراند ولا ابن أمير مدينة ميراند ولا فى الشمال الإيطالى، قرب فيرادا. درس فى جامعة بادوا، وكان أستاذه إلياس ديل مديجو يهوديًا، تلقى عليه دروسه فى اللغات العبرية والعربية. وكشف الأستاذ له عن أسرار الباطنية الإسرائيلية وهى

المعروفة بالقبالانية . ثم نزح بيكو إلى باريس حيث عاش شتاء واحدًا (١٤٨٢ – ١٤٨٣) ، ومنها ذهب إلى فلورنسا (١٤٨٤) يدرس على فيتشينو الذى وجهه إلى دراسة أفلوطين وكتابات دنيس الأديوپاجى . ثم توجه إلى پيروجيا والتقى هناك بمتخصص فى «القبالانية». وفى العام ذاته وصل إلى روما وأعلن فى جامعتها أن «القبالانية» جزءٌ مما أوحىَ به إلى إسرائيل، ورفض الجحيم **عقابًا أبديًّا** للمذنبين الخاطئين ، **لأن حياتهم محسوبة بنهايتها** . وهاجم عبادة الأوثان . وأثار كل هذا عليه غضبا شاملا ، اضطره إلى الاختفاء والهرب إلى باريس ومنها عاد إلى إيطاليا . حيث وجد الحماية فى بلاط أمير فلورنسا لورنزو الأفخم . وكانت فلورنسا معروفة بأنها موطن الأفلاطونية الجديدة ، وبتشجيع صديقه العلامة فتشينو ختم كتابه الكبير وعنوانه « سبعة ظواهر الخلق » . وفى عام ١٤٩١ ركز دراسته فى تفسير « العهد القديم » وأظن القارئ يعرف أن هذا الجزء القديم من الكتاب المقدس « مكتوب أصلا باللغة العبرية » . وأود التنبيه إلى أن البروتستانت – وخاصة جرمان الشمال – يعنون عناية كبيرة « بالعهد القديم » . ولقد قابلت سويسريًّا من آباء المعبد البروتستانتى فى جينيف ، وعرفت منه هذه الحقيقة ، وأن دراستهم الدينية تفرض عليهم إجادة اللغة العبرية ، ولعل القارئ يعرف أن « التوراة » جزء من « العهد القديم » وتشتمل عند الإسرائيليين على خمسة أسفار تبدأ بسفر « التكوين » وتنتهى بسفر « التثنية » فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مواب حسب قول الرب .. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

وانتهى من دراسته « للعهد القديم » بالاستماع والمتابعة لنشاط سافونارولا فى إصلاح الكنيسة والاكليروس . وتحول فيما تبقى له من عمر قصير إلى التقشف والزهد . وتوزيع ممتلكاته على أعمال الخير .

وتوفى فى ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ فى عامه الأول بعد الثلاثين . فى ذات اليوم الذى اقتحم الملك شارل الفرنسى غازيًا إيطاليا ، بدخول فلورنسا .

وقد يتعجب القارئ من أستاذية اسرائيلى بجامعة « إيطالية » مرجع هذا أن كانت فى ذلك العصر جاليات يهودية هامة تعيش فى فرنكفورت ، وبراج ، وروما ، وطليطلة ، ومن باب أولى فى فلورنسا ، والهيومانيون اهتموا بالدراسات العبرانية ، مثل عنايتهم بالإغريقية ، وكما سبق القول كان الغرض من التبحر فى اللغتين - بالإضافة إلى الناحية الحضارية - هو الاتصال المباشر بالكتاب المقدس فى لغتيه الأصليتين : العبرية « للعهد القديم » ؛ واليونانية « للعهد الجديد » . وإيطاليا الهيومانية هى التى قدحت من الثقافة العبرانية إشعاعًا عالميًا ، وقد صارت مكتبة الفاتيكان فى حكم البابا نقولا الخامس أغنى المكتبات فى المخطوطات « الإنكونابل » (وهى المخطوطات التى لا يوجد منها فى العالم سوى نسخة واحدة) .

وفى عام ١٩٨١ كانت فرصة لى أن أزور مكتبة « ديرسان جال » بمدينة سان جال فى سويسرة ، وأطلع على ثرائها فيما يختص بالدراسات الدينية ، ومارأيته معروضًا من مخطوطات .

« وانكونابلات » للكتاب المقدس . وعجيب أن أخرج من داركتب بإمتاع يقرب من متعة زيارة متاحف الصور والتماثيل الشهيرة .

وانتهى فتشينو إلى وظيفة كنسية ، كما انتهى پيكو ، باتباع الراهب سافونارولا ، المصلح الأول للكاثوليكية والمنتهى بالإعدام شنقًا ثم حرقًا . وختم پيكو حياته بالتجرد عن ممتلكاته ، وقد بلغ الواحد والثلاثين من عمره .

obeikandl.com

لماذا تميزت فلورنسا وإيطاليا بميلاد الرينسانس ؟

وَصْفٌ أساسى جدير بالتساؤل : أن يبدأ عصر الإحياء فى إيطاليا وتكون فلورنسا هى السبّاقة فى المضمار . وإليك الإجابة :

هذا التحرك الحضارى العجيب ، مصدر التطور فى أوربا ، شمل الآداب والفنون بل الفكر بعامة ، سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو علميًّا أو دينيًّا . وإن كان الأدب سباقًا ، فإن التصوير والنحت والعمارة فازت بقيادة لم تقف عند المحلية فى إيطاليا ، بل انتقلت إلى المجموعة الأوربية كلها ، وبسرعة لها معناها فى تقدم المجتمع الإنسانى وما واصل من خطوات وتطورات حضارة فاز بها المجتمع الأوروبى بمركزه العالمى إلى اليوم .

واجبنا أن نتابع ذلك التحرك خطوة خطوة فى ميدان الثقافة ومصادرها – وأولها المصدر الحى لكل حضارة : ألا وهو « الفكر الحر » للفرد ، والمجتمع .

طلب البابا أوربينوس الرابع (١٢٠٠ – ١٢٦٤) من توماس

الإكويني ترجمة وتعليقًا على أعمال أرسطو. وكان هذا البابا ميالا في اجتماعاته، وعلى مائدته، إلى رجال الفكر، ولم ينجح سان توماس ولا تلاميذه بنقل روح الإسكولائية إلى إيطاليا. فالإيطاليون بطبيعتهم لاينحون إلى المنطق لذاته. ولا يعنيهم من الفلسفة إلا أن تقوم على أساس علماني، مما يعود بالخير على الإنسان لإسعاده. لاتهمهم «الميتافيزيقا»، وإنما الأخلاقيات (إلا طيقا). وهذا هو دانتي يؤكد أولوية العقلانية، بشرط أن يكون «حرًّا» والحرية تحكمه.

معنى هذا أن الفكر الإيطالي يختار النواحي العملية من أفلاطون وأرسطو وزينون وسنيكا وهذه النواحي ضابطها القانون الروماني. ففي القرن الرابع عشر كان هذا القانون يؤلف أساس التربية الليبرالية.

ومعنى ذلك أيضًا أن الفكر الإيطالي ظل حريصا على حرية الفكر حتى في المسائل الدينية، مع احترام روح الديانة في العلاقة بين العبد وربه. وقد يرى من يعنون بهذا الموضوع أن يراجعوا سيرة سان فرنسيس الأسيزي، مؤسس الرهبنة الفرنسسكانية. فهو يمثل الضمير الديني في صميم الإنسان الإيطالي. وكان نجاحه في بلاده عظيمًا حتى وصف هذا النجاح وكأنه أقام كنيسة داخل الكنيسة اللاتينية الرومانية، أساسها الروح والحب. وأضيف هنا دراسة جديرة بالاطلاع في هذا الموضوع لايرنست رينان في «مجلة العالمين» (ريفيو ده دوموند) عدد ٥ يوليه ١٨٦٦. عما يوصف «بالإنجيل الأبدي»، المنسوب إلى راهب سيتوكي «بواقيم ده فلور». والنسبة للدير المشهور في بلده سيتوه بفرنسا. ومن رهبانه المشاهير سان برنار.

وسيدرك القارئ أن هذه التحركات داخل الكتلكة بعثت فى حياة الإيطاليين الإيمان الدينى مؤسسا على حب الحرية .

ولعل هذه الحقيقة توضح للقارئ معنى التحرّر من ضيق « العصر الوسيط » ، الذى صححته الطبيعة الإيطالية فى فلورنسا ، عاصمة توسكانيا ، وانتقل إلى غيرها من أمارات الوسط والشمال . وواقع الأمر أن روح الإنسان يثقلها ويشقيها الكبت ، والضغط على الحياة الخاصة ، بله حياة المجتمع . فالكبت ، أو الضغط يضعف الشخصية ، والإرادة ، ونشاط الروح .

وأيسر الظواهر التى تفسر السبق الإيطالى فى إحياء الحضارة الكلاسيكية هى أن الإيطاليين عاشوا على مقربة ، بل مع آثار الرومان . وأن مدينة روما أنشأها الرومان . وقد احتفظت الرياسة الكنسية بوجودها فى عاصمة الإمبراطورية . وربما قال قائل بأن آثار الرومان قائمة فى كل البلاد التى غزتها ،وفتحتها جيوشهم ، من الشمال البريطانى إلى أقصى الجنوب فى شمال أفريقيا ، ومن أقصى الشرق ، إلى شاطئ الأطلنطى غربا .

ولو أننا حصرنا كل الباقى من تلك الآثار فى الأصقاع المختلفة ، فإن إيطاليا ، وخاصة الوسطى ، وفى الشمال تحتوى على أضعاف كل مايوجد فى البلاد الأخرى .

والواقع أن الإيطاليين قبل حركة الإحياء كانوا يحسون ويقدرون أهمية العالم القديم ، بل هم اتجهوا إلى ماوراء الرومان ، أى إلى البلد

الذى أورث روما أسس حضارتها ، وأعنى اليونان . ولم يجئ عصر الإحياء من فراغ بل اكتمل وعيه بالعالم القديم . وعندنا مثل واحد سبق لنا التحدث بشأنه فى هذه الصفحات ، وهو الشاعر بترارك ، وكان أول الهيومانيين الذين أدركوا وقدروا ما أورثهم التاريخ من آثار أجدادهم . وحياة بترارك سابقة على عصر الرينسانس .

يُحَقّ لنا إذن أن نستنتج بأن هذا الخط الكامل الذى لم ينقطع . هو الذى فجر حضارة « الإحياء » فى إيطاليا قبل أى بلد أوروبى آخر . وعندنا الدلائل على ذلك التواصل فى أن الكنيسة الكاثوليكية استقرت على اللغة اللاتينية ، مثل استقرارها فى روما . فقد كانت البابوية تعتبر نفسها وريثة إمبراطورية الرومان . وظل القانون الرومانى قائما ، وتم هذا فى عهد « القوط » الذين قضوا على الإمبراطورية .

روما هى الرابطة بين الحاضر المسيحى ، والماضى الغابر ، وهى عند الكاثوليك عاصمة العالم . منذ أن غدت مصدر السلطان عند أباطرة الجرمان ، وملوك الفرنجة ، يحجون إليها ليتوجوا بيد بابا روما .

ويحسن ألا تنسى أثر إمبراطورية بيزنطة فى حركة الرينسانس ولم يكن مجرد بعد عن إيطاليا ، بل كانت دائما ذات أطماع ، وماهى الدول الأوربية التى لم تكن لها أطماع فى البلاد الساحرة ؟ : أسبانيا وفرنسا وألمانيا . فحتى القرن العاشر كان البيزنطيون أسيادًا مباشرين على أرض مدينة بارى ، وغيرها فى جنوبى إيطاليا . وكان لهم مقام مرموق لدى جمهورية البندقية ، وعند أهل نابولى ، وساليرنو ،

وأمالفى ، وكل زائر لفنيسيا ، عليم بشىء من تاريخ الفنون ، يلاحظ فى أبنيتها الهامة شبهًا بأسلوب بيزنطة .

فكنيسة سان مارك هى أثر بيزنطى عظيم (القرن ١١) على أن ڤنيسيا كانت بحكم موضعها ، واستقرارها فوق جزائرها ومياهها ، تعتبر فى معزل خاص . إنما الأثر البيزنطى يظهر بأروع بيان فى آثار مدينة رافنّا على الشاطئ الشرقى لإيطاليا . لقد زرتها فى فترتين من حياتى . الأولى لم أفهم أصل آثارها البيزنطية . وفى الفترة الثانية كنت بدأت أتبين طريقى فى ظلام تاريخ لم أقرأه ، ولم أمارس دراسته ، إنما كنت قد زرت اسطنبول ، ودخلت أيا صوفيا . وكان أتاتورك قد أشار بإعادتها إلى أصلها البيزنطى ، وإزالة الجص من حيطان كانت مغطاة بفريسكات بيزنطية ، رأيت واحدًا منها فى زيارتى . والذى يضع لهذا الفن توقيعه الغالى هو : التصوير بالفسيفساء يكفى أن تشاهد كنيستى ڤيتالى وسان چوفانى فى رافنا لتحس بأصالة بيزنطيتها . وهذه من آثار الإمبراطور چوستنيان ، وسترى صورته ، وصورة الإمبراطورة عقليته تيودورا بموكبها على جدران سان ڤيتالى ، كل ذلك بطوب الفسيفساء ذى اللون السماوى الجميل .

ويَتَبقى لنا فى قيام عصر الإحياء ذكر للفن والفكر الإسلامى . كان أثره عامًّا ، دون خصوصية البيزنطى . ومن الناحية التاريخية كان العرب قد استولوا (من القرن التاسع حتى الحادى عشر) على صقلية . وإذا كان النورمان قد أزاحوهم فإنهم استبقوا العلم العربى . والطب العربى . والفن والشعر . وكان الإمبراطور فريديرك الجرمانى

من أسرة الهوهنشتا وفن (تلك الشخصية العجيبة المتأثرة بالإسلام إلى حد كبير) هو الذى حافظ على التراث الإسلامى فى الجنوب الإيطالى . كان المسيحيون الغربيون يكرهون هذا التدخل الإسلامى ، ولكنهم يحترمون حضارة الإسلام ، ويحسدون أهلها ، مع نظرة إعجاب بإكراه لروعة هذا الفن ، وانفساح حضارته ، وخاصة الناحية التى شرفت عقلية العرب أصحاب الأندلس ، لمعرفتهم بأسرار أرسطو ، وأرسطو عند الغربيين فى ذلك الزمان كان يمثل فيلسوفًا انكشفت له آثار الألوهية . ولهذه المعرفة الإسلامية لم يضع دانتى فى جحيمه ابن رشد ، بل وضعه فى المنطقة المسالمة بين الحكماء : هوراس وأفلاطون .

ومع أن صقلية العربية هذه لم تُجار مسلمى الأندلس فى روعة أدبهم وعلومهم ، فقد كان لها مدارسها فى الطب ، والفلك والرياضيات ، والتشريع ، وفى التفسير ، وفى متصوفيهم ولغويهم ، والمؤرخين والجغرافيين والشعراء .

وبمجئ النورمان وإلى صقلية أعاد هؤلاء المنطقة إلى العصر الوسيط ولكنهم أبقوا على المسلمين فى أخطاطهم بمدينة باليرمو ، كما ثبت كل ذلك فى كتاب عربى من ذلك العصر ، منازلهم وأحيائهم ومساجدهم وقاضيهم وحماماتهم وأسواقهم . كما لم يخلُ بلاط النورمان من العلماء والجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، وكلنا فيما أظن نعرف كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للإدريسى ومازال كتابه

يحمل إهداءه إلى الملك النورماندى روچيه ويعرف الكتاب إلى اليوم « بالروچارى » .

وفى ختام القرن الثانى عشر كان الملك النورماندى الشاب غليوم الطبيب يقول للمسلمين فى بلاطه : « فليعبد كل منا الرب الذى يحب . لأن من يؤمن بربه يحقق السلام لفؤاده » ولبست نساء باليرمو من الإفرنج والإيطاليين ملابس المسلمات . كما ألف الملك من العرب ضمن الجيش النورماندى فرقة من المسلمين الفرسان حملة القوس . وفتح الملك جيوم بلاطه للمسلمين الأطباء والمنجمين والشعراء والرحالة – راجع الشاعر والقاضى ابن قلاقس السكندرى . وابن ظافر الأديب الفحل . وشهد الرحالة ابن جبير من بلنسية لپاليرمو بأنها تتقبل المقارنة بمدينة قرطبة .

إيبوليت تين عن الرينسانس

لم أوفق إلى ما كتبه المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى تين الفرنسى عن عصر الإحياء ، وأكتفى مؤقتًا بنقل ما كتبه فى مؤلفه المشهور « تاريخ الأدب الإنجليزى » عن انتقال الرينسانس إلى إنجلترى . وهو تقديم طويل عن عصر هنرى الثامن والملكة « اليزابث » . اخترت منه ما يتعلق بالعصر الفلورنسى .

« ... وبدأت الاكتشافات ، وتحركت الصناعة ، والعلوم ، والفنون فى طريق التجديد اكتشفت قارة جديدة ظنها مكتشفها الأول ساحل الصين . وعرفت أوربا الطريق البحرى بالطواف حول الطرف الجنوبى لإفريقيا حيث رأس الرجاء الصالح (وأفضل ترجمة الاسم « برأس الأمنية الطيبة ») ومنها واصلوا المسير إلى الشمال الشرق حتى بلغوا الهند .

وبدأت العلوم التجريبية تنمو كالنبت الصالح . كما اتجه الإصلاح إلى الدين ، ولم تبق ناحية فى الذكاء لم يُنْضِجْها الجهد العام ، وتحرك الإنسان وكأن عيون البشر تفتحت فجأة للرؤية

والمشاهدة ، فتنطلق منهم روح جديدة تشرئب إلى العلا . لم يقف الإنسان عند فحص الأشياء فرادى (بالقطاعى) حسب ترتيبها الاسكولائى ، بل اتجه إلى النظرة الشاملة ، وبلوغ ماوراء الظاهر لفحص محتوياته ولمس أجزائه ، حتى يخرج منها بصورة حية قد يستطيع أن يترجمها بإنجاز فنى أو بعمل منتج ، أجل ، كان القرن الخامس عشر يقدم العصر العظيم إلى أوربا ، وقد أخصب البشر ، العصر الذى مافتئنا نحيا ونعاون بعصارته فى إثارة جهده وانطلاقه . وعندما تظهر قدرات البشر بهذا الوضوح فإن إحياء نموذج العالم القديم (يونان وروما) يحمل معه عشق الجمال . ظهر ذلك فى أول أمره بإيطاليا ، فهى أقرب البلاد صلة بالعصر الكلاسيكى ، وانتقل منها إلى فرنسا فأسبانيا ، فالبلاد الواطئة ، فالمانيا وإنجلترا ، كيف حدث هذا ؟ وماهى الثورة التى دارت فى النفوس حتى يجتمع أهل كل تلك البلاد على شئون جديدة ، غابت عنهم منذ انهيار إمبراطورية روما ؟ لابد أن يكون قد حدث تحسن عام شعر به الناس . فالنموذج المثالى هو المعبر عن المقف الحقيق . والشخصيات التى يستحضرها خيال الكاتب ، مثل كل تصورات المفكر ، تقدم بيانات عن حالة المجتمع ، ودرجة فلاحة ورفاهيته . وهناك توافق وتطابق ثابت بين ما يعجب الإنسان ، وبين الشخص ذاته .

فحوالى ختام القرن الخامس عشر تحرك المجتمع الأوربى ، وراجت صناعة الصوف وتجارته فيما يشبه الفجائية ، حتى بلغ الأمر فى إنجلترا أن حولت أراضى الغلال إلى مروج ومراع للماشية ذات الصوف .

وإذا تمعنا فى حقيقة الأمر نجد أن الملوك فى أوربا جنحوا فجأة إلى السلام : لويس الحادى عشر فى فرنسا ، وفرديناند وايزابلا فى أسبانيا ، وهنرى الثامن فى إنجلترا ، أما إيطاليا فقد انتهى فيها عصر الإقطاع مبكرًا ، وقامت فيها الجمهوريات والإمارات ، وعندما يستتب السلام تظهر الفنون والصناعات ، وهناء البيوت وأهلها يتبع الأمن المدنى ، ورب البيت الذى يطمئن إلى حوائج أسرته ، ويشعر بالحماية التى تحوط بلده ، يستقر السكون فى نفسه ، ويحن إلى أرضه ، ويسعد بإصلاحها . وهذا هنرى الثامن يأمر برصف طرقات لوندرة (١٥٣٣) . وقد كانت القذارة والقامة والحفر ، والوحل والمياه الآسنة تجعل من الطرقات أذى وعذابًا .

ولقرن سابق على ممالك أوربا بدأ الإيطاليون الاهتمام بالآثار القديمة متأثرين بكتابات بلوتارك وبوكاتشيو . وراحوا يبحثون فى فرنسا وألمانيا وبيزنطة عن مخطوطات قدماء اليونان والرومان يدرسونها ويترجمونها ، ويعلقون عليها ، والأقرب إلى فهمهم هو اللاتينية لغة كثرتهم ، وهى ذات لغتهم مُحَوَّرةً نحويًا بسيطًا . وأخذوا يتأثرون فرجيل فى شعره ، وسيسيرون فى نثره . ونشروا على المجتمع مايوصف بحسن المحاضرة ، وإمتاع الروح بكل ماينعمون به ، من رياض غناء فيحاء ، وموسيقى تشرح النفوس . وكان شاعرهم وأميرهم لورنزودى مديتشى فى أشعاره الرعوية يحث على أفراح الدنيا ، « فلا شىء مؤكدًا فى غده » .

ميشليه عن الرينسانس

أعجبت بتفسير المؤرخ الفرنسى الكبير چول ميشليه لمصطلح « الرينسانس » قال : « عودة إلى الحياة » ، مدخل فى باب المعجزات ، إذا قصد بها المخلوق الحى » . وتنبه ميشليه إلى ما يحدث فى الطبيعة ، فقال : « رينسانس » تعنى عودة إلى الحياة فى الطبيعة ، اقتراب الإنسان من الطبيعة ، والمسيحية من الوثنية فى العصر الكلاسيك (يونان وروما) ، وأوربا من آسيا . ومنذ زمن مديد ، عودة أوربا إلى الطبيعة ، لا فى التاريخ ولا فى السياسة فحسب ، بل فى العِلْم (سيانس) .

١ – دراسة مباشرة للطبيعة (فى الكيمياء الأولية وهى « الأيلكمى » .

٢ – بالدراسات اللغوية والفلسفية للوثنية : عبادة الطبيعة (نسخ المخطوطات الوثنية) .

٣ – التقريب بين الطبيعة وبين الأمم – وبين الفن والزمان – وبين الطبيعة والزمان ، والفن .

وأرجو ألا يتوقع القارئ منى بعد هذه الترجمة الحرفية ، لتعاريف المؤرخ الكبير ، أن أباشر ترجمة ما قدم به فصوله عن الرينسانس . لأن وضع ميشليه ، وتاريخ حياته وسط صراعه ضد قوى الظلام فى النزاع الأخير بين الرجعية والتقدمية ، دفعه إلى مهاجمة العصر الوسيط بلا هوادة . ولكن المؤرخين ، وخاصة فى زماننا ، متفقون على أن استنكار ذلك العصر ، خروج عن التحقيق السليم . فقد كان للعصر الوسيط إنجازات فكرية وفلسفية ذات قيمة فى ذاتها ، وإنجازات معمارية فى طرازين عظيمين للفن : الطراز « الرومانسكى » (ستيل رومان) والطراز « القوطى » (ستيل جوتيك) . ولكليهما آثار من أعلام فن العمارة . نعم إن ميشليه يتجه نحو الناحية الصحيحة فى الشطر الأول من ذلك العصر ، ولكنه ينتهى بتسفيه نهاياته .

وليتصور القارئ أنه بعد هذا التقديم ، يبدأ فصله الأول بهذا العنوان : « فرنسا فى حكم شارل الثامن تجتاح إيطاليا » ، وله عذره ، فإن مجلدات تاريخه – وهى من أمجاد الثقافة الفرنسية ، وميشليه من أئمة المؤرخين – خاصة بتاريخ فرنسا من مطالعها حتى العصر الحديث . فأنا مكتف بترجمة ملخص لكلامه عن الرينسانس وحده . « لطف كلمة الرينسانس فى أن أصدقاء الجماليات لا يذكرون من ذلك العصر إلا بلوغ فنه المجدد فى حرية رائعة . أما العلامة فيرى فيه استجداد الدراسات الخاصة بحضارتى اليونان والرومان . « ورجل القانون يرى نفاذ الضياء إلى داخل خلطة من

عاداتنا وتقاليدنا العتيقة » .

ثم يتفق فى الاعتراف بعصر « الإحياء » : الشخص المحب للفن ، ورجل الإيمان ، ورجل الشك . وتساؤل مونتينى : « ماذا أعرف ؟ » (Que Gais-je) هو كل ما رآه پاسكال ، ويوسيويه . الجهد الهائل إذن فى ثورة مركبة ، متسعة الأرجاء ، جمة النشاط ، انتهى إلى العدم . إرادة عظيمة تنتهى إلى غير نتيجة . من شأنه تثبيط لهمة الفكر الإنسانى .

فهؤلاء السادة ، أهل المعرفة ، نسوا أمرين صغيرين شكلا ، إنما اختص بهما ذلك العصر من دون كل العصور السالفة ، وهما : اكتشاف الدنيا ، واكتشاف الإنسان .

فالقرن السادس عشر بامتداده ، واتساعه ، يتضمن : كولومبوس ، وكوبر نيقوس ، وجاليليو ، أى من اكتشاف الأرض إلى اكتشاف السماء . لم يكتشف الدنيا فحسب ، بل اكتشف الإنسان . وبينما كان ڤيزاليوس يكشف له عن الحياة ، وكالفان ، ومارتن لوثر ، وكوجاس ، ورابليه ، ومونتينى ، وشكسبير ، وثرفانتس ينفذون إلى أسراره الأخلاقية ، بدأ استقرار الإنسان على العدالة والحكمة .

يقول : ماذا نرى من علم فى العصر الوسيط ؟ لم يكن إلا علم العرب ومعاونيهم اليهود ..

« ولنقل شيئًا تحدثنا عنه بما لا يكفى ، وهو أن الثورة الفرنسية ذاتها ، وجدت الصيغ معدة ، جاهزة بأقلام الفلاسفة » .

« وكان القرن السادس عشر كله إرادة ، والأحفاد فى القرن التاسع عشر أخذوا عنه قوى التجمع ، وعرفوا النبع الثر الذى يخضل فيه الجنس البشرى لتقوية الروح . أى نعم !

لقد كان القرن السادس عشر بطلا » ، ودمتم !

obeikandl.com

كشاف مختصر عن بعض شخصيات
(الرينسانس)

الأريتينو (پيترو) :

أَحَدُّ لسان فى القرن السادس عشر . وُلد فى أريزّو (١٤٩٢) ، ونفى من جراء قلمه الساخر اللاذع . غادر مسقط رأسه إلى روما ، ودخل فى حماية البابا ليون العاشر . ولكن نشره لأشعاره البذيئة اضطرته إلى التماس الحماية فى بلاط فلورنسا ، وأميرها يوحنا المديتشى . وعقب وفاة الأمير هاجر إلى ڤينسيا ، وفيها ألّف ملهاتين مفلوتتى العيار فى الإباحية ، ولا يمكن إنكار موهبته القلمية ، وبها وبتهديدها عاش هانئًا وناقدًا حصيفًا لفن التصوير ، وكان صديقًا لعظيم مصورى البندقية تسيانو ، توفى الأريتينو سنة ١٥٥٦ .

أرسطو :

كان عصر الرينسانس أفلاطونى النزعات ، وليس معنى هذا أن هيومانيى فلورنسا تجاهلوا أرسطو ، فقد نشرت سنة ١٤٩٢ فى البندقية أهم طبعة لأعمال أرسطو - ولكن التفسير الأرسطى عند ناشريه اتكأ على المسيحية .

الأكاديمية :

مولدها فى عصر « الإحياء » وفى إيطاليا : اجتماع شخصيات بينها علاقات صداقة ، وكذلك اتفاق فى إهتمام أعضائها بمسائل فكرية .. وقد تعددت فى ذلك العصر المنفتح بإيطاليا ، وفى البلاد الأوربية التى وصل تأثير « الرينسانس » إليها بهذا التتابع فرنسا ، أسبانيا ، البلاد الواطئة ، إنجلترا ، ألمانيا .

أول الأكاديميات وأهمها وأشهرها هى أكاديمية فلورنسا برياسة مارسيليو فتشينو ، ففى أواخر القرن الخامس عشر (الكواترو تشينتو عند الإيطاليين) ، حددت هذه الأكاديمية هدفًا موضوعيًا هو إنشاء تركيب فلسفى يوفق بين المسيحية والأفلاطونية . ويجمع إلى هذا كافة التجارب الدينية . مارسيليو فتشينو (١٤٣٣ - ١٤٩٩) وتلميذه بيكوديلا ميراندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤) ذهبا إلى أبعد من نقولادى كويس القائل بأن « الكتب المقدسة ، والفلسفات أكدت أمرًا واحدًا بتعبيرات مختلفة » ، وعرضا مسائل من زاوية جديدة نتيجة اقتناعها بأن التجربة الدينية هى جزء من التركيب الإنسانى لإله مشترك فى كل الأديان ، وطبيعة فى الإنسان كالفرس يصهل . ومن أقوال فتشينو : « عندما أتحدث عن الدين ، أعنى الغريزة المشتركة ، وهى طبيعية فى أن يجمع الإنسان على وجود عناية إلهية ، هى صاحبة الملك » .

وتحت تأثير بيكو ديلا ميراندولا على أستاذه فى توجيهه إلى الأصول الإغريقية ، والعبرانية والعربية ، يقول : « نستعرض كل

أساتذة الفلسفة ، دون أن نأخذ بمذهب واحد منهم ، بحثًا عن توافق روحى هام تختصر فيه الفلسفات إلى حقيقة نفسية (صوفية) ، وهذا واضح الاستحالة ولا يتعدى رأيًا يقول به مفكر عبقرى .

البرتى (ليونى باتستا) :

أفلاطونى بارز (توفى ١٤٧٢) وصاحب فلسفة فى فن العمارة ، وفى تنظيم المدن ، وكان إلى هذا موسيقيًا عَلّامة ، ومصورًا ، ونحّاتًا ، والعمارة أهم نشاط له . لقد طالع وتعمق دراسة كتاب المعمارى الرومانى (فتروفيو) ثم وضع مؤلفه المشهور فى العمارة (طبع بعد وفاته بقليل) . وهو مصمم واجهة كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا ، وقصر روتشلائى بفلورنسا .

إسكندر السادس :

تولى البابوية عام ١٤٩٢ عقب وفاة البابا إنوتشنتى الثامن . وُلد فى أسبانيا عام ١٤٣١ ، وتوفى فى روما عام ١٥١٣ ، بعد حياة فاسقة ، وأخلف عددًا كبيرًا من الأطفال أشهر منهم تشيزارى بورجيا ، وشقيقته لوكريسيا بورجيا ، وهو البابا الذى شلح المصلح الدينى ساڤونارولا ، وسلمه لمحكمة التفتيش (انكيزيسيون) .

الأسلحة :

تطورت قدرات الأسلحة باستخدام البارود ، وصب المدافع ،

وصناعة « القرابينات » (بنادق قديمة) . وتطورت أبنية الدفاع باستحكامات الحصون .

الاسترولوجيا :

(علم النجوم الأسطورى – والتنجيم ممارسته) :

كان الاهتمام بالنجوم والكواكب فى عصر « الإحياء » ، فكانت الأفلاك سواقة للبشر ، تؤثر فى حياتهم بالخير والشر . وكأنها مخلوقات حية ذات شعور وإدراك . ولكل آدمى فى حساب النجوم صورة من حياته حسب إتفاق ميلاده مع حركة واحد منها . وما فتئت كلمة « المُنَجِّم » تحمل إلى اليوم فى بلادنا هذه الصلة المتصلة . وهى ما تعرف « بالطالع » . وهذا غير « الاستخارة » التى يقوم بها حفظة القرآن الموهوبون يقرءون الطالع فى الآيات .

إيراسموس (زيديريوس) :

وُلد فى روتردام حوالى عام ١٤٦٩ . علامة هيومانى ، تتلمذ على « الفرير » مدى خمس سنوات ، ترهبن عام ١٤٨٨ ، وخلصه البابا جول الثانى من الرهبنة ، ورسمه كاهنًا ، وعينه سكرتيرًا لأسقف كامبراى ، ثم سمح له بمتابعة دراسته فى جامعة باريس . زار إنجلترا لأول مرة عام ١٤٩٩ ، حيث التقى بتوماس مور ، وجون كوليت . والسنوات ١٥٠٠ – ١٥٠٦ قضاها فى باريس ، ثم فى البلاد الواطئة ، فالعودة إلى إنجلترا . ومؤلفة عن « الأمثال والحكم » صدر عام ١٥٠٠ . أمّا كتابه عن « الفارس المتدين » فقد صدر فى

١٥٠٤ ، ومن ١٥٠٦ حتى ١٥٠٩ عاش بإيطاليا فى البندقية وروما ، ودرّس اللغة الإغريقية ، وأعاد طبع أمثاله وحكمه ، وقد ارتفع بعددها من ٥٨٠ فى الطبعة الأولى إلى ٤٢٥١ فى الطبعة الثانية . وغادر إيطاليا إلى إنجلترا ، وفى الطريق ألف كتابه الأشهر (مديح الجنون) = (تقريظ غياب العقل) أتم كتابته فى منزل توماس مور ، وظهر عام ١٥١١ . عاش أكثر أوقاته فى إنجلترا فيما بين ١٥٠٩ و ١٥١٤ ، ودرس بعض الوقت اللغة اليونانية ، واللاهوت بجامعة كمبردج . ويعود إلى القارة عام ١٥١٤ ، وقد تم الصلح بين فرنسا وإنجلترا فاتجه إلى « بازل » (بسويسرا) حيث تعرف على ناشره الجديد (فردين) ، ثم عاش أغلب السنوات من ١٥١٦ حتى ١٥٢١ فى موطنه (البلاد الواطئة) ، وعين مستشارًا لملك أسبانيا شارل الأول (مستقبلا : الإمبراطور شارلكان ، أى شارل الخامس) ، وقد بدأ عصر الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، فيطلب منه مارتن لوثر أن يظل على الحياد . ويغادر بازل إلى فرايبورج (سويسرا) ، المدينة الكاثوليكية ، حيث يؤلف « السلام فى الكنيسة » ، ويعود إلى بازل ١٥٣٥ ، ويتلقى من البابا بولس الثالث عرضًا بتعيينه كاردينالا ، فيعتذر ويموت ليلة ١١ - ١٢ يولية ١٥٣٦ بعد أن وزع عطاياه على أسرة ناشره فردين ، وعلى الفقراء والمرضى .

أوربينو :

بفضل أميرها فيديريكو دا مونتيفلترو تحولت مدينة أوربينو إلى

مكان مرموق فى تاريخ الرينسانس ، إذ كان الأمير واسع الثقافة ، صديقًا وسنادًا للهيومانيين والعلميين . وله صورة بريشة بيتروديلاً فرانشيسكا ، والمدينة مسقط رأس رفائيل فخر للفن والمصورين طرًّا . وبراماتى المعمارى الكبير ، أهم آثارها قصر الأمير ، عملت فى بنائه كوكبة من المعماريين المشاهير فى إيطاليا . ومن الخارج ، ويعتبر من أجمل أبنية العصر (هو الآن متحف للتصوير والنحت) ، واشتهرت المدينة بفن الخزف ذى المصادر الشرقية (الفايانس والسيراميك) .

البنوك :

فى أوائل القرن الخامس عشر ، وخاصة فى فلورنسا ، كانت البنوك منوعة : بعضها بنوك تسليف بضمانات ، وبفوائد ترتفع إلى ٢٠ ٪ . مما دعا رهبنة الفرنسسكان إلى إنشاء ما يعرف باسم (مون ده پييتيه) « أكمة الرحمة والصلاح » بما سمّيناه « القرض الحسن » . وبنوك تسليف بضمانة مقصورة على الجواهر والحلى . ولها صلة بالتجارة . تبيع الحلى على أقساط . وبنوك لاستبدال العملة . ومن الواضح أن كل هذه مؤسسات صغيرة ، والأشهر والأهم هى المؤسسات المصرفية الضخمة وأشهرها فى فلورنسا : بنك أسرة المديتشى ، وبنك أسرة الباردى ، وكان لهذه البنوك مراسلون فى أهم مراكز التجارة والموانى . وهى الأصل فيما هو معروف اليوم فى كل مكان .

بوكاتشيو (چوفانى) :

عن « لاروس الصغير » ، طبعة ١٩٨٢ : كاتب إيطالى ، وُلد فى فلورنسا أو فى تشيرتالدو ؟ (١٣١٣ – ١٣٧٥) ، مؤلف قصائد غزلية من خرافات اليونان أورمزية أو بسيكولوجية .

وهو مؤلف « الديكاميرون » مجموعة قصص كتبها فيما بين (١٣٤٩ – ١٣٥٣) وهى تصور عادات وأخلاق القرن الرابع عشر ، وأسلوبها كان له فضل تثبيت النثر الإيطالى .

وإليك ماجاء فى كتاب المؤرخ المعاصر ديلومو ، الذى أنقل عنه هذه العروض (طبعة ١٩٧٣) : ولد فى باريس (كذا) ١٣١٣ لأب فلورنسى من رجال البنوك . ولأم فرنسية (كذا) . عاش طول حياته فى فلورنسا ، انتقل منها إلى نابولى ليتقرب من الملك الفرنسى الغازى لإيطاليا . عشق بوكاتشيوابنة هذا الملك ، وخلدها فى رواية قصيرة (نوفيل) باسم Fiammetta فيامتا) ، ثم عاد إلى الاستقرار فى بلده فلورنسا ، ألف أشهر كتبه « الديكاميرون » ، وهو مجموعة قصص قصيرة كتبها باللغة الإيطالية ، فهو ، ودانتى وپترارك كانوا أبطال تحويل العامية اللاتينية إلى لغة من أهم لغات العالم بفضل مبتدعيها العظام . وحكايات « الديكاميرون » مليئة بالسخرية والغراميات المكشوفة . وما فتئ هذا الكتاب يُقرأ فى كل بلاد الحضارة ، بلغاتها . وكَتَبَ مؤلفات جادة باللاتينية لا تقوم لها قائمة الآن . وألاحظ « أنا » أن اللغات العامية كافة ، تبسيط للغة

الأصلية ، وكنا فى شباب « المدرسة الحديثة » ندافع بقوة عن اللغة العامية . ولم يحسن منا بلاغة العامية سوى واحد هو المرحوم ، الكاتب القصصى الأصيل ، محمود طاهر لاشين . ولكنه أنف من أن يكتب بها سطرًا واحدًا . فأضاع فرصة العمر ، لو كان استسلم للغة الكلام فى مصر ، وكان فيها بطلا مجليًا . « وبلاغة العامية » مصطلح عجيب لا يفهمه إلا المتمرسون بأدب التونسى وأدب الزجالين فى كل عصر من التاريخ المصرى – العربى .

البورصة

مصدر الاسم : لقب أسرة من مدينة بروج (بلجيكا) واللقب كان « دير بورتسى » ، ومسكن هؤلاء البورتسى فى بروج كان مقامًا فى ميدان يؤمه التجّار الأجانب ، والإيطاليون بخاصة ، وعندما افتتح بعض الإيطاليين مكتبًا تجرى فيه العمليات المعروفة أطلقوا عليه اسم « البورصة » .

البوصلة :

اكتشفها أو اخترعها الصينيون ، ونقلها الملّاحون العرب إلى أوربا ، ومنها إلى بقية العالم وقد طورها الملاحون الإيطاليون العظام .

برامانتى (دوناتود انجلو) :

أعظم المعماريين فى عصر الرينسانس إلى جانب ميكلانجلو . وُلد فى أوربينو (١٤٤٤) وتوفى ١٥١٤ . حقق الروائع المشهورة فى

روما ، وفى لومبارديا . اجتذبه أميرها لودوفيكو المغربى (المورو) ، وقصد روما عام ١٤٩٩ ، وأصبح معمارىّ البابا چول الثانى الذى أضاف قصر البلڤيدير إلى الڤاتيكان . بدأ برامانتى فى بناء كنيسة سان پيترو الجديدة ، عام ١٥٠٦ وليتمكن من إقامتها حسب تصميمه ، كان عليه أن يتخلص من كنيسة قسطنطين ، أول معتنق للمسيحية من الأباطرة ، فلم يتردد فى هدمها ليُنشئ البناء الشائق الملاحق لقصر الڤاتيكان : كنيسة هائلة فى أسلوبها الكلاسيكى الصريح فى هندامه المنبسط الأنيق ، وفى قُبّتِهِ ، أجمل قباب روما ، وقد درس بدقة تصميمه لها فى قبة البانتيون الذى بناه الإمبراطور أجريبا .

برونليسكى (فيليپو)

ولد فى فلورنسا ١٣٧٧ ، ودرس العمارة الكلاسيكية فى روما ، ويعتبر أكبر معمارى فلورنسا . وهو بانى « بيت المعمودية » (الباپتستير) . من روائع فلورنسا ، وأقام « الدوم » الكنيسة الكبرى : « سانتا ماريا ديل فيورى » ، وهى البناء الذى يتعرف عليه السائح وسط المدينة ، بقبتها البيضاوية وهى من القباب المعدودة فى العالم المسيحى . وهو بانى قصر « پيتى » الذى يعرض نخبة نادرة من التصوير الرينسانسى . توفى ١٤٤٦ .

برونو (چوردانو) :

ولد فى (الكامپانيا) ١٥٤٨ ، وجاء إلى نابولى ١٥٦٢ وترهب فى دير الدمنيكان ورسم كاهنًا فى ١٥٧٢ ، ثم حصل على الدكتوراه

فى اللاهوت ١٥٧٥ . وعندما اتهم بالهرطقة تحلل من الكهانة وهرب إلى خارج إيطاليا . وعاش متنقلا بين منطقة الساقوا وچنيف ١٥٧٩ ، حيث توافق مع البروتستانت أتباع كَلْفَنْ . وحدث خلاف اضطره إلى مغادرة چنيف إلى تولوز ، ثم إلى باريس (١٥٨١ – ١٥٨٣) ، ثم لوندره ، وڤيتانبرج ، بألمانيا ، حيث اشتغل بتدريس الفلسفة (١٥٨٦ – ١٥٨٨) . وبعد إقامات فى براج وفرانكفورت عاد إلى إيطاليا ، وانتهى إلى البندقية حيث قبض عليه من محكمة التفتيش ونُقل إلى روما حيث أُعيدت محاكمته واستغرقت سنوات انتهت بحكم الإعدام ، فأُحرق حيًّا عام ١٦٠٠ . ألف أكثر من خمسين كتابًا ورسالة ، وثلاث قصائد فلسفية . رفض رفضًا باتًّا التبرئة بنعمة الرب ، فإيمانه كان بالممكنات اللانهائية للإنسان . كان أول العقلانيين فى التاريخ الحديث . ولكنّ آراءه أخرجته من المسيحية . أحرق فى روما بتهم عدة ، ربما كان أشدها إنكاره الرؤيا والوحى ، ومذهب الخطيئة الأولى للإنسان الأول ، وألوهية المسيح .

بَلاديو (أندريا دى پيترو) :

وُلد فى پادوا ١٥٠٨ ، وتوفى فى ڤيشنزا ١٥٨٠ . كان دارسًا وناشرًا لمجلدات المعمارى الرومانى الكبير ڤتروڤيو ، وغدا من أعظم من أقاموا أبنية دينية ودنيوية ، وبعد وفاة رجال العمارة الكبار . وآثار پلاديو باقية فى بعض المدن الإيطالية وخاصة ڤيشنزا وڤنيسيا .

جوتنبرج (يوهانس جنسفلايش) :

« مطبعجى » ألمانى ، ولد فى مايانس (ما بين ١٣٩٤ أو ٩٩ – وتوفى ١٤٦٨) بدأ « جواهرجيًّا » ، ثم صانع مرايا . استقر فى ستراسبورج ١٤٣٤ ، وانتهى فى عام ١٤٤٠ من تحقيق اختراعه فى السر . وأصالته فى أنه صب الحروف منفصلة (تيبوجرافيا) ، وكان الصينيون قد تصوروها منذ القرن الحادى عشر . وقد استغرق عمله حتى اكتمل فى صورته النهائية نحو عشر سنين (١٤٣٨ – ١٤٤٨) ، تكلف أموالا لجأ فيها إلى المدعو يوحنا فوست من مايانس منذ عام ١٤٥٠ . وقد طبع الكتاب المقدس المعروف « بالكتاب ذى الاثنين والأربعين سطرًا » ويبدو أنه كان أول كتاب طبع بالطريقة المستعملة إلى اليوم .

ورفع يوحنا فوست عليه قضية يطالب بفوائد ديونه التى تأخر جوتنبرج فى سدادها . وخسر المخترع القضية ، وفقد أدواته ومطبوعاته . وأخذ أحد معاونيه مكانه . وهو المدعو بطرس شيفر . وطبع أول نسخة للمزامير تعرف « بمزامير مايانس » . وعاش المخترع العظيم فى محنة ، حتى أنقذه وعنى بأمره وشرفه رئيس أساقفة ما يانس « إدولف فون نساو » .

جيبرتى (لورنزو) :

شهرته الكبرى فى الباب البرونزى لمعمودية فلورنسا « البابْتِسْتِر » ،

وقد ملأه بتصاوير وقائع وشخصيات « العهد القديم » فى تربيعات تملأ الضلفتين ، وكانت من نوع النحت البارز (باريلييف) ولد عام ١٣٧٨ وتوفى ١٤٥٥ . ولقد عمل جيبرتى فى « سانتا ماريا ديل فيورى » وفى « أورسان ميكيلى » ، وأحواض المعمودية بمدينة سيينا .

دورير (ألبرخت) :

من مواليد نورمبرج عام ١٤٧١ وتوفى ١٥٣٨ . عمل فى كولمار بمرسم شونجاور ثم فى ستراسبورج ومنها إلى إيطاليا حيث تعرف على الموضوعات المتصلة بالعصر الكلاسيكى ، وتأثر بصور النساء العاريات فى فن مانتينيا وبولايولو ، ويعتبر أول فنان جرمانى درس الفن الإيطالى فى صدق . « فنه جهد صامت ، وعزيمة جادة فى تحقيق وضوح الشكل ، وتوافقه مع مصورى الجنوب » . وصفه إيلى فور : « فنان علامة متفتح الانتباه لكل شىء . فيه من العصر الوسيط : الإيمان والرمزية ذات الثراء فى تحقيقها ، وأخذ عن الرينسانس القلق والقدرة على بيان المناظر اللانهائية ، التى تظهر للعقول فى تخفيها . والإرادة التى لا تهدأ لتحقيق المعرفة . كان رساماً أهم منه مصورًا . أثرَى فن الحفر بموضوعات ذات معانٍ عميقة (المجموعة العظيمة بمتحف الألبرتينا ، فى فيينا) ولكن هذا لا يغمطه حق قدراته فى التصوير بالزيت ، فهو مقتدر فى الفنّيْن . ولم يك فن الحفر – بهذا المستوى – معروفًا قبل عصر الرينسانس . بدأ حفره بادئ ذى بدء فى الخشب ، ثم تحول إلى نقش النحاس ، ذلك الفن المتطلّب صبرًا وتمهلا ، وكان « دورير » من أوائل القائمين به ، أظهر

فيه أروع إنجازاته . وكان إلى كل ذلك مهندسًا حربيًا ، ألف كتابًا فى التحصينات ، وأتم كتابه عن النسب فى الجسم الإنسانى ، عام وفاته ١٥٢٨ » .

هرْمس « مثلث العظمة » (Trismagiste)

منذ أن تعرف هيرودوت على أن « توت » (أو « طت ») إله المصريين القدامى ، هو هرمس الإغريق ، وهو يزعم أن كهنة مصر يحتفظون بأسرار ربهم وبقداسته . ولكن أفلاطون فى « فيدرا » وفى « فيلاب » تحدث عن « توت » أو « طت » مخترع حروف الهجاء والكتابة .

وعنى السكندريون فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد بأفلاطون من جديد ، وبحثوا عن وسائل تحقيق ما سموه بالكتب « الهرمسية » ، وأنها حاوية لمذاهب أو أفكار متفقة مع أفكارهم ، مثلما فعل الفيثاغورثيون : عزوا مؤلفاتهم هم إلى فيثاغورث أو إلى تلاميذه المباشرين .

الهيومانية :

كلمة « هيومانيتاس » عند سيسرون وكانتليان تعنى الثقافة الروحية أو تثقيف الروح وآداب الطباع . فإذا أخذنا بالأعم يكون المعنى هو الحضارة .

وعندما تنبه مثقفو الإيطاليين منذ پترارك إلى عظماء الكتّاب

والشعراء فى العصر القديم كانت تحدوهم الرغبة إلى استعادة القيم الثقافية التى كانت موضع تقدير أولئك الكتّاب والشعراء . ولكن هذه الاستعادة تتطلب البحث عن المخطوطات وتنقيتها من الأخطاء ، مع التصويب اللغوى ، وكذا دراسة اللغات القديمة الضائعة كاليونانية والعبرية . وبعض الهيومانيين كانوا على الأغلب فصحاء ، تعنيهم قواعد النحو . ولكن حقائق الجدد ، المطالبين بما عند القدماء تتطلب تنظيمًا بين أفكار القدماء وأفكار هؤلاء المحدثين ، بمعنى البحث عن توافق بين الإنجيل والتوراة ، وبين حكمة أفلاطون بعد العثور عليه ، وبلاغة سيسيرون . والتوفيق بين صرامة التقشف المسيحى ، وأبيقورية القدماء أو رواقيتهم . **والجهد فى هذا التركيب المزدوج يمثل عصر الرينسانس** : من لورنزوفالا الإيطالى إلى ميشيل ده مونتينى الفرنسى ، وكان الهيومانزم الإيطالى أكثر وثنية من غير الإيطاليين . ولكنه انتهى بمارسيلى فتشينو ، وتوماس موروابراسم إلى محاولة غير كاملة النجاح بالدمغ والتكامل بين المسيحية وعشق الحياة الدنيا والجمال ، وهى التى تتمثل – إلى أقصاها – فى ثقافة اليونان والرومان .

الحديد :

اتسع دور الحديد فى إبّان عصر الرينسانس ، وارتفعت أفرانه لصنع الحديد الزهر ، حيث استُعمل كثيرًا فى صب المدافع .

الطوائف :

جماعات صُنّاع يدويين أو تجار ، كل منها مختص بحرفة تجرى فى مكان مقرر . وتتألف الجماعة من « أسطوات » ورفقاء وصبية ، وكلهم مُتّفِقُون على اتباع قواعد الطائفة فى احترام سلطات « الأسطوات » ، أو الحكام ، وقد ازداد عدد هذه الطوائف فى عصر الرينسانس ، اشتد فيها النظام الاقتصادى ، ونمت فيها حياة الصناعة ، ولكنها فقدت سيطرتها السياسية ، وأصبحت واحدة من وسائل الحكم المطلق ، وكانت النتيجة إيقاف التقدم الصناعى .

اليهود :

اضطهاد اليهود فى أوربا لم يكن ظاهرة مستمرة ، فهى تقوم ، وتظهر وتغيب حسب موازين الحوادث . وبدأت مثلا فى عصر الصليبية الأولى ، وعادت بقسوة فى سنوات وباء الطاعون الأسود . وكانت كل هذه المظاهر أكثر حدوثًا فى فرنسا وألمانيا ، وأقل بكثير فى إيطاليا ، بل كان هذا البلد الكريم ملجأً لهم ، وخاصة بعد طردهم من أسبانيا الكاثوليكية (١٤٩٢) . ولأنهم بالحق كانوا يتمتعون بحماية البابوات . وهذه إحدى الشهادات الطيبة لهؤلاء الرؤساء الدينيين العظام . وإليك بعض أسمائهم : مارتينو الخامس ، أوجين الرابع ، بيوس الثانى ، يوليو الثانى ، ليون العاشر ، بولس الثالث ، يوليو الثالث ، سكْسْت – كانت (أى الخامس) . كان أطباء كل هؤلاء البابوات من اليهود . والثقافة العبرية التى كانت مُجَهّلة فى

العصر الوسيط ، تحولت فى القرن الخامس عشر إلى عنصر هام فى الهيومانية . هذا إلى أن اليهود المتأصلين فى التسليف بالضمان أدوا دورًا اقتصاديًا هامًا . فحوالى عام ١٦٠٠ كانت البنوك ومكاتب التسليف اليهودية تبلغ ٥٠٠ ، والمتعاملون اليهود فى التجارة ما بين الشرق والغرب كانت أكثر قواعدهم فى فنيسيا ، وفيرارا ، وانكونا ، والقسطنطينية ، وكانوا فى هذه سبعين تاجرًا ونيفًا . ومع كل هذا لم تلعب أية أسرة فى غرب أوربا من اليهود دورًا اقتصاديًا يقارن بما قامت به أسرة المديتشى فى إيطاليا ، وأسرة الفوجر Fugger فى ألمانيا ، ثم جاء إنشاء « أكمات التقوى » (مون دى پيتيه) أو « القرض الحسن » ، من منتصف القرن الخامس عشر منافسًا لمكاتب التسليف اليهودية ، وازداد هذا بتقادم الزمن ، وبدأ التدهور الاقتصادى للإسرائيليين يشتد بتنظيم ما عرف فى الشرق باسم « حارة اليهود » . والكلمة المستعملة فى اللغات الأوربية هى « جِتّو » فى روما ، وبولونيا ، وأنكونا وغيرها ، استجابة لمكتوب بابوى سنة ١٥٥ .

كويس (نقولادى) :

ولد فى بلدة « كويس » التابعة لمنطقة « تريف » بألمانيا . حصل على الدكتوراه فى القانون الكنسى من جامعة پادوا . ورسم قسًّا ، وشارك فى المجمع الدينى بمدينة بازل (سويسرا) . حاول إقامة إتحاد للكنائس اليونانية واللاتينية ، ثم عين قاصدًا رسوليًا للبابا فى ألمانيا ورقى كردينالا ، ووضع نظامًا للكنائس الألمانية ، ثم استدعاه البابا

إلى روما وعينه حاكمًا لها . وتوفى سنة ١٤٦٤ . وهو أول الهيومانيين الجرمان باتساع معارفه العالمية . وحاول المصالحة بين الكنيسة اليونانية وأتباع « هوس » فى بلاد التشيك ، مع روما . كان فيلسوفًا وعلامة مجددًا ، وله أفضال على كوبرنيقوس وجاليليو . وكان أول من قال بأصالة الرياضيات فى الفيزيقا . وكتابه "De docta igniorantia" « سنة ١٤٤٠ يُعَدُّ من أعلام المؤلفات فى عصر « الإحياء » .

القَبَلانية أو القَبَالَة (تعنى فى العبرية : ما يقبل ، أو يستلم) :

حقيقتها تعنى تفسير بعض إصحاحات « العهد القديم » بطريقة خفية باطنية . وهذه الأسفار كان لا يعرف بها سوى « القبلانيين » وهم الذين يفسرون هذه الكتب فى معنى توجيهات الرب « ياهوڤا » إلى عباده . ويبدو أن فى « القبالة » نوعًا من « الثيوزوفية » التى عرف بها من قبل بعض المشاهير ، مثل فيلون السكندرى ، وابن سينا ، وباراسلس . وقد انتشرت فى العصر الوسيط ، وخاصة فى أوساط يهود الأندلس . ولكنها هبطت عند مجموعات أقل إدراكًا ، وعلمًا ، إلى ضروب من السحر الذى يمارسه العوام .

كاستليونى (بالداسارى) :

مؤلف كتاب « رجل البلاط » (الكورتجيانو) ولد فى « مانتواء ١٤٧٨ ، وعاش فى بلاط « أوربينو » وكان صديقًا لرافاييل فى روما ، وعضوًا فى جماعة الهيومانيين حول البابا ليون العاشر . وبعد وفاة زوجته ١٥٢٠ ترهبن ، وعُين قاصدًا رسوليًّا لكليمان السابع ،

توفى بطليطلة ١٥٢٩ فى العام التالى لِنَشْر كتابه الذى طبع عصره إذ كان المؤدب لأبناء الأعيان . ونَشَرَ فى إيطاليا والغرب الأوربى القيم الحضارية : التربية والتعليم ، والآداب الاجتماعية . وزاد من احترام المرأة ، وكان معتنقًا الأفلاطونية الجديدة ، ورجلا كاملا ، وجنديًا لا معًا ، ودبلوماسيًا ، وفنانًا .

كليمان السابع (يوليودى مديتشى) :

وُلد فى فلورنسا ١٤٧٨ وانتخب بابا (١٥٢٣ - ١٥٣٤) وكان حليفًا لفرانسو الأول ، الملك الذى اهتم بحركة الرينسانس فأدخلها وأذاعها فى فرنسا . صداقته لفرانسوا جلبت عليه عداء الإمبراطور شار لكان الذى عاقبه باجتياح روما (١٥٢٧) ، فخربها وأخذ البابا أسيرًا . وفى عام ١٥٣٣ رفض طلاق ملك إنجلترا هنرى الثامن من عقيلته كاترين داراجون . فأثار ثورة الملك على الكاثوليكية ، وكان ذلك بدء تحول إنجلترا إلى البروتستانتية .

الكوليدج :

كان استمرار الكولدجات فى عصر الإحياء ، وإن فاقت معاهد العصر الوسيط فى تحولات بالغة ، أهمها - تبعًا لطبيعة العصر الجديد - أنها تحولت من معاهد دينية إلى كليات فنية (بمعنى هيومانى) فازدحمت بالطلبة مما جعل هيئات التدريس تتخذ أوضاعًا جديدة ، مع إدراك عميق لدورهم كتربويين .

الكيمياء :

كانت على الأغلب (ألكيمى) تبحث عن وسيلة لتحويل المعادن البخسة إلى ذهب ، تأسيسًا على النظرية القديمة فى العناصر الأربعة ، أو ما كان يعرف بمبادئ « باراسلز » الخمسة وبقيت على حالها مختصة بالكيفية أو النوعية . غير أن « باراسلز » اتكأ على التجارب واستخدم أدوية تداخلت فيها المعادن .

الكوكانى :

اصطلاح معروف عن مكان خيالى : هبة للفقراء ، يُطعَمون منها حتى الشبع مثل تنابلة السلطان .

الكومندا :

شركة أعمال ظهرت فى إيطاليا من القرن الثانى عشر . وعقود الكومندا تتألف من « الكومنتارى » الذى يقدم المال ، والتاجر الجوال بعقد لرحلة واحدة . وفى بعض الأحيان يكون التاجر صاحب سفينة ، فهو الذى يقدم المال .

كوبرنيقوس (نقولا) :

ولد فى بلدة « تورون » ببولندة (١٤٧٣) ابن تاجر ثرى . درس أولا فى كراكوفيا (١٤٧٦) وكانت أول مدينة أوربية ، هى ومدينة بولونيا بإيطاليا ، تدرس فيها الرياضيات (التى بدأت فى كراكوفيا

١٤٧٦) . وانتقل إلى بولونيا واستقر فيها ثلاث سنين ، قام بعدها لتدريس الرياضيات فى روما ثم حصل على الدكتوراه فى القانون من مدينة فيرارا ، وتابع الدراسة الطبية فى ذلك الوقت (١٥٠٤) وعاد إلى بولندة حين اجتمعت لديه عناصر نظام الفلك ، وصبر حتى عام ١٥٤٣ – سنة وفاته – لينشر مؤلفه عن قبة السماء ، إهداء إلى البابا بولس الثالث .

الكتب الهرمسية :

الكلمة تعنى لغويًا : شيئًا مقفلا بطريقة كاملة ، أو شيئًا صعب الفهم والوصول إلى معانية الخفية . ومعنى الوجه الهرماتيك أى الذى لا يفصح عن شىء ، وهرمس اسم علم يوصف بالـ (Trasmegiste أى العظمة المثلثة) وهو الاسم الإغريقى للإله المصرى « توت » . والكتب الهرمسية تؤرخ فى القرن الثالث الميلادى فيما يطلق على مذكرات كتبت من محاضرات أو ندوات سكندرية ، وهى تعبر عن أفلاطونية ممزوجه بالرواقية ، وكأنها تريد الإيضاح عن مذهب تحول به « هرمس » الآدمى إلى إله ، وتصنع ذلك فى عباده الخلصاء . « والكتب الهرمسية » تعنى شيئًا من هذا فى الفلسفة . ثم أضيفت إليها كتب الأسحار « جمع سحر » « وفلك التنجيم » والإلكيمى » ويبدو أن الرينساتس اهتم بها . كما اهتم بالسحر والتنجيم (الإستولوجيا) . وقد امتدح فشينو وبيكوديلاميراندولا السحر مقاومًا به السحر الشيطانى المرفوض ، وفيها الدلالة على أن الكون وحدة حية ، والإنسان فيها

« ميكروكوزم » . والعجيب أن كل ذلك فتح الطريق أمام ديكارت ، واكتشف حل المعادلة من الدرجة الثالثة .

ليوناردو دافنشى :

فنشى مسقط رأس ليوناردو ، بلدة على مقربة من فلورنسا .. وُلد عام ١٤٥٢ وتوفى ١٥١٩ ، كان ابنًا غير شرعى لمسجل عقود ، تتلمذ على ڤيروكيو . ومن صوره « البشارة » (وموكب الملوك الماچ (السحرة) يمجدون المسيح الطفل) . تمّ هذا فى فترة وجوده بفلورنسا . أما السنوات من ١٤٨٢ حتى ١٤٩٩ ، فهى حقبة حياته فى ميلانو . وفيها صور « العذراء والمسيح الطفل وسط الصخور » و « العشاء الأخير » أو « الربانى » وعندما سقطت دوقية ميلانو ، عاد إلى فلورنسا ، وحقق « الجوكندا » وصورتين « للمادونّا » (سيدتنا مريم) وباكوص « إله الخمر عند قدماء اليونان » و « ليدا » التى عشقها زوس كبير الأرباب فدخل عليها فى صورة « بجع » (تم) . ثم يعود لفترة قصيرة إلى ميلانو ويغادرها إلى روما ، حيث قضى سنتين ، ثم سافر إلى باريس ١٥١٥ ، وتوفى هناك بعد إقامة أربع سنوات . وهو مبتدع « الأسْفِيومَاتو » فى خلط الألوان ، والعارف بتفاصيل التشريح فى الإنسان ، ومهندس ورسام بالقلم والريشة . وفيلسوف ، وله كتاب عام عن التصوير (نشر ١٦٥١) .

لورنتسو الأفخم :

هو لوران المديتشى المولود بفلورنسا ١٤٤٩ ، والمتوفى فى

ضاحيتها كاريجى ١٤٩٢ . تولى الإمارة بعد وفاة أبيه ١٤٦٩ وتمرس بالحكم شابًا غير موفق ، ولكنه منذ سقوط المتآمرين (الپاتسى) ١٤٧٨ ، كان قد نضج إلى درجة أنه قدر على مقاومة البابا سكستوس الرابع ، كما نجح فى التضامن مع ملك نابولى ، ويعتبر نموذج العقلاء فى السياسة الإيطالية ، خاصة فى توفيقه إلى بلوغ السلام . كان لوران شاعرًا وحامى أصحاب القلم . كُتّابًا وشعراء ، كما كان حاميًا للفنون وأهل الفن والفلسفة .

مازاتشيو (توماذودى سرچوڤانّى) :

مصور عبقرى ، وُلد فى سان چوڤانى بوادى الأرنو (إقليم أريزو) ١٤٠١ ، توفى فى روما ١٤٢٨ . لم يتأثر بالمصورين ، وإنما بالنحّاتين : جيبرتى ودوناتلّو ، وخاصة « پاكوبوديلا كوارتشيا » . عمل فى روما ، وفى فلورنسا ، ولم تبق من أعماله إلا تسع فريسكات و ١٠ لوحات فى عمره القصير . وكان أثره فى الفن واضحًا منتشرًا . ولست أنسى تكرار زيارتى لكنيسة سانتا ماريا دل كارمينا لأتمتع بمجموعة فريسكاته .

المجامع (الكونسيل) :

عاش الشعب المسيحى بأوربا الغربية والوسطى من القرن الرابع عشر حتى منتصف السادس عشر . على أمل انعقاد مجمع كونى (أومسكونى) لتنظيم الكنيسة التى سارت على غير هدى وإن كانت على أبواب تطور ، فتعلقت الآمال بهذه الفكرة حتى بعد إخفاق

مجمع «كونستانس» . وكان من رأى المصلح سافونا رولا عقد مجمع عام . ووصل الحال بلويس الثانى عشر فى خلافه مع البابا يوليو الثانى إلى محاولة الحكم على البابا الشرس بواسطة مجمع يعقد فى بيزا (١٥١١ - ١٥١٢) فلم يحضره غير إكليروس يحابى فرنسا - وواجه البابا الموقف بعقد المجمع الخامس بقصر « اللاتران » ولم ينته إلا عام ١٥١٧ ، فى حكم البابا ليون العاشر . وكان الكثير من قراراته يتعلق بوضع حد لمساوئ الكنيسة . وهذا المجمع هو الذى انتقل بقراراته فيما بعد إلى مجمع ترنتينو ، أشهر كل هذه المجامع .

فى الوقت الذى قام مارتن لوثر فى ڤيتنبرج ، وبحضور رجل قانون ، مسجل عقود ، ليعلن على الملأ عام ١٥١٨ « استدعاء مجمع مسكونى حر لا يعقده البابا ، بل يكون عقده بأمر من الإمبراطور . وإذا استعمل البابا سلطته ليمنع قيام المجمع الحر ، أو عارض فى إصلاح الكنيسة ، فإن من واجبنا ألا نلتفت لا إلى شخصه ولا إلى سلطته » .

وفى هذا الذى يقترحه ليجتمع فى ألمانيا ، أن يكون لرجال الدين وحتى لغيرهم حق التصويت . ولن تؤخذ سوى قرارات متفقة مع نصوص الكتاب المقدس . ولم يقدر لهذا المجمع أن يعقد أبدًا . ومات المصلح مارتن لوثر وهو يسطر رسالة هجاء عنيف ضد البابوية « **المنشأة فى روما بواسطة الشيطان** » . أما المجمع البابوى الذى بدأ انعقاده فى مدينة ترنتينو ، فى عام ١٥٥٢ حضره مندوب جرمانيا البروتستنتية ، ولكن الانفصال بين الكاثوليك والبروتستانت كان قد

تم . وعلى الرغم من نشاط أعضاء مجمع ترنتينو (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وسعيهم بكل شجاعة لإعادة بناء الكنيسة الكاثوليكية ، لم يكن ممكنًا تجنب الوقوع فى معاداة البروتستانتية .

ميكلانجلو (بونارّوتى) :

نحّات ، مصور ، معمارى ، شاعر ، ولد ببلدة كابريز من أعمال توسكانيا سنة ١٤٧٥ . وكانت حياته فى فلورنسا معادلة لامتداد حياته فى روما حيث توفى سنة ١٥٦٤ . كانت الوحشة متغلبة على طبعة فى صورة الانفراد والوحدة .

وفى هذا وصفه رفائيل بأنه يعيش منفردًا كالجلاد . والفريسكو الذى يمثل عذاب يوم القيامة ، فى المصلى الخاصة بالبابا : « الكابلامستينا » قرر ثلاث باباوات متتابعين تدميره بسبب عرى المعذبين . وكل ناقد يفلسف انطباعه ، فمنهم من يقول : هذا النحّات الذى احتقر التصوير - فيما عدا الالافريسكا - ويعتبر التصوير عبث أطفال ، لا يليق برجل . وكان فى فريسكاته نحاتًا بأقوى وأشهر مايكون ، حتى فى مباشرة النحت ، وفى كل مرة يمسك بالإزميل يقع فريسة لمعرفته الكاملة بتشريح العضلات . وهى ظاهرة لا تفوت على من يشاهد تماثيله عن قرب . والعجيب أنه - على كثرة ما ترك من أعمال النحت - لم يكمل منها إلا القليل . فى حين استطاع أن يتم كل فريسكاته على سقف « الستينا » وعلى حيطانها . فأكمل أعظم عمل زخرفى فى العالم . « لأن العلم والمعرفة يخدمانه . فهو قادر

على أن يستخرج من الجدران أى كتل يشاء تصويرها ، وبالحجم الذى يقصد ، كما أمكنه أن يخرج منها ما يشاء من إضاءة أو إظلام » . (إيلى فور) « فهو فى « السستينا » بلغ قمّة الفن الكلاسيكى وتصويره تملك وساد فى عصر الباروك ، سابقًا فى ذلك أهله ، بما تنبض به حركة المعذبين فى الجحيم » (شاستل) .

أشهر أعماله : تماثيل « البييتا » تمثل حنان الأم وحزنها على ما أصاب المسيح . وقد نحت أكثر من « البييتا » المشهورة فى كنيسة القديس بطرس . ثم تمثال « داڤيد » (النبى داود) فى فلورنسا ، وتمثال « النبى موسى » فى واحدة من كنائس روما وتماثيله فى مقبرة المديتشى .

الموسيقى :

بلغ الفن الموسيقى أشده ، وضاعف من قدراته فى الرينسانس . حين ذاك خطت الموسيقى فى طريق لم يسبق حدوثه فى أية حضارة سالفة . فأصبحت فن تنظيم النغمات وتوفيقها ، وهى تتألف من خطوط لحنية تؤدَّى معًا بما فيها من كونترابظ وهارمونيا . ويوصف كل هذا إلى اليوم بالموسيقى البوليفونية ، أى متعددة الخطوط اللحنية .

وأكثرهم إيطاليون ، وفلمنكيون : يوهانس أوكجيم ، وجيوم ماشو وچوسكان ده پريه . وفى الموسيقى الدينية رولان ده لا سوس وفى أسبانيا : توماس لويس دى ڤكتوريا .

والأهم إبداع فن موسيقى جديد ، تشارك فى أدائه الآلات المختلفة تعزف معًا من وترية ونحاسية وطبل ، وأوبوا ، وفلاوتات ، كما يشارك هذا الأوركسترا الجديدة فى سناد قصة تمثل على المسرح بالغناء الفردى والكورالى . وعندما لا يتحمل بعض الكلام العادى فى نص القصة أن يغنى ، اخترع له نوع من التلاوة المنغمة تعرف بالريشيتاتيڤو ، وقد بدأ بها التحول من البوليفونية إلى الميلوديا ، تصاحبها الآلات هارمونيا . تم ذلك فى خواتيم القرن السادس عشر ، والأغلب فى تاريخ الأوبرا أنها بدأت من عام ١٦٠٠ ومن عظمائها مونتڤيردى .

المستسيزم (وهو التصوف عند المسيحيين) :

بدأ ظهوره مع القرن الرابع عشر ، وواصل تقدمه فى فردية المتصوفة ومن عظمائها فى الرينسانس ميترايكارت ، وچان دافيلا ، وسانتا تريزا ده لاكروا ومارتين لوثر .

الملاحة :

رحلات الاستكشاف التى أثارها عصر الإحياء ، لا يمكن تصور قدراتها إلا بتطوير عمارة السفن ويصاحبها أو يتبعها رسم الخرائط ، واختراع الآلات المساعدة على الملاحة الاقيانوسية . بحيث يتمكن الملاحون من تحديد مكانهم ، بتحديد خطوط الطول والعرض . دون أن ننسى أهمية آلات تحديد سرعة مسير السفن .

المسرح :

كان الرينسانس العصر الذهبي للمسرح فى أوربا . والمقصود هنا هو المسرح بمعناه الحاضر عند كل الشعوب المتمدنة . فالمسرح فى العصور الوسطى كان ظاهرة دينية وترفيهية . وهنا أصور تجربتى نتيجة لحضورى بمهرجان سالزبورج مرتين : الأول فى شبابى ، والثانية فى كهولتى .

أنت فى هذه المدينة التى باركها عبقرى الموسيقى فولفجانج أماديوس موزار ، تشاهد وتسمع أنواع الإنتاج المسرحى فى مختاراته ، وتسمع الموسيقى الدينية فى الكنائس والموسيقى السمفونية فى قاعاتها ، والغناء المسرحى باصطحاب الأوركسترا فى الأوبرا .

ولكن سالزبورج فى كل مهرجاناتها منذ مطلعها فى عشرينات هذا القرن تحرص دائمًا على عرض مسرحية واحدة (وهذا تجاوزٌ أن نسميها بهذه الصفة) يتم إخراجها عامًا تلو عام دون تغيير فى نصها . عنوانها بالألمانية « بيديرمان » « إيفريمان » بالإنجليزية وهى حوار ومُساجلات أخلاقية عميقة فى معناها الدينى ، مع البساطة الساذجة . تقدم فى مدرج مكشوف يلاصق أبواب كنيسة ، وفيها معنى التجرد كمخلوق من مخلوقات الرب ، ذات أثر عجيب على المشاهد ، أيًا كانت ديانته .

وهذه الناحية فى سالزبورج تمثل العصر الوسيط فى أروع بيان .

وهى تابعة لما يعرف بالإنجليزية « ميراكل بليز » أو « موراليتى بليز » .

ومسرح الرينسانس ، أصوله المسرح الكلاسيكى الإغريقى ، ونتاجه فى المسرح الرومانتيكى والرمزى والمعاصر . وهو ظاهرة اجتماعية فنية فىكل زمان ، وتصوره فى عصر الإحياء يعنى ما جرى عليه حين ذاك من تطور هو الذى يعيش فيه الآن . حدث هذا فى القرن الخامس عشر . وقد تحول من عملية أخلاقية دينية إلى علمانية مؤكدة . فالهزل يختص بذاته مثل المآسى ، والممثلون يتحولون من هواية إلى حرفة فنية متخصصة لعب فيها المؤلف الدور الأكبر ، والمخرجون والممثلون دور التنفيذ وفى الكوميديا تظهر التمثيليات . بطلاها « بوليشينل » (بلياتشو) « وبنطلون » وتعرف باسم « كوميديا ديلارتى » وهى صفة تَبقَّى منها أثر حتى عند المسرحى العظيم موليير . وفى إنجلترا وأسبانيا تحتفظ بصفاتها القومية . وشكسبير هو الأعظم فى هذا المجال مرآة لعصره تاريخيًا ومأسويًا وكوميديًا ، وقد انتقل المسرح من الفندق والمقهى إلى بناء متخصص ، ولم يعد مجرد تمثيل لغاية ترفيهية ، ففيها التطهير بمعناه الأرفع ، وتتطلب ميزانية أغنى ، وليست بحاجة إلى أمير أو ملك أو ثرى « ميسين » . والعجيب أنها تحولت فى مصر تحولا طبيعيًا من أحمد الفار وأمثاله إلى الشيخ سلامة حجازى – مسرح غنائى – وجورج أبيض – مسرح درامى . وحين حاول أبيض تقديم مسرحية مصرية عصرية وظهر بردنجوت الباشا ، والمرأة فى لباس مغنية أو راقصة يعشقها الباشا المحترم ، كان أبيض مضحكًا فى جده ، لأننا لم نستطع أن نتقبل هذا التحول من رجل

فى صورة أو ديب الملك ، أو لويس الحادى عشر أو الممثل «كين» إلى باشا مصرى فى مطالع القرن ، علمًا بأن جورج أبيض كان ممثلا تراجيديًا من الطبقة الأولى ، على المستوى الأوربى .

العثمانيون :

عقب سقوط إمبراطورية الأتراك السلجوقيين ، التى نشأت فى الأناضول الأوسط (١٣٠٢) بدأت ما يعرف « بسلطنة الروم » على يد عثمان الأول (١٢٨١ - ١٣٢٦) وعرفت الإمبراطورية باسمه . وهو الذى حقق فتح البلقان (١٣٥٢ - ١٤٥٣) وامتلك سليمان الأول غاليبولى (١٣٥٤) .

تصحيح هذه التواريخ : حوالى ١٢٩٩ تحرر عثمان من السلجوقيين (١٣٢٦ - ١٣٥٩) . حكم أورخان الذى فتح بروصة (١٣٢٦) وجعلها العاصمة وامتلك نقيا وغاليبولى (١٣٥٩ - ١٣٨٩) مراد الأول فتح أدرنة ثم تراقيا ومقدونيا وبلغاريا . وأول من عرف « بالسلطان » ووضع الأساس الإدارى للعثمانية (١٣٨٩ - ١٤٠٣) ، بايزيد الأول قهر الصليبيين فى نقوبوليس (١٣٩٦) (مدينة بلغارية على الدانوب) . (١٣٩٦) انتصاره على المجريين بقيادة سجسموند والفرنسيين : (١٤٠٢) تيمورلنك يقضى على إمبراطورية الأناضول (١٤١٣ - ١٤٢١) ويستردها السلطان محمد الأول (١٤٢١ - ١٤٥١) ثم يعود إلى غزو أوربّا (١٤٥١ - ١٤٨١) . محمد الثانى (الفاتح) يهزم بيزنطة ويحتل عاصمتها

ويسميها أسطنبول ، ويحتل الصرب والبوسنيا وألبانيا وشبه جزيرة القرم إلخ (١٥١٢ - ١٥٢٠) . سليم الأول : يفتح الأناضول الشرقى (١٥١٤) وسوريا (١٥١٦) ومصر (١٥١٧) . (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . قمة مجد الإمبراطورية فى سلطنة سليمان القانونى . يحتل « موهاكس » مدينة مجرية على الدانوب (١٥٢٦) - يغزو شمال إفريقيا - ويحاصر فيينا (١٥٢٩) - (١٥٦٦ - ١٧٠٣) اثنا عشر سلطانًا ضعيفًا (١٦٩٩) معاهدة كارلوفتز أول تراجع للعثمانيين . «فقد المجر .

فلورنسا (عاصمة إقليم توسكانيا) :

قدر عدد سكانها قبل « الطاعون الأسود » بعشرة ومائة ألف . وبعد زواله بخمسين وستة وستين ألفًا عام ١٦٢٢ . وعلى الرغم من هذا التناقص فإنها العاصمة الفكرية والفنية للرينسانس فى مطالعه ، والمركز الأول لحركة البنوك بأوربا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والهيومانية فيها تتلون بكبرياء فى أوائل القرن الخامس عشر (عند الإيطاليين يسمى القرن برقه فهو « الكواتر وتشنتو ») . ثم تتحول الهيومانية إلى عصر فلسفى منسجم مع فيتشنو (مارسيل) . وعندما غادر المديتشى فلورنسا سنة ١٤٣٤ لم تعد الجمهورية إلى الحياة فيما بين السنوات ١٤٩٤ حتى ١٥١٢ . ومن ١٥٢٧ حتى ١٥٣٠ ، إلا لتمحى نهائيًا . فقد أصبح آل المديتشى دوقات توسكانيا . وفلورنسا وطن عدد هائل من عظماء الفنون : من مازاتشيو ، وبرونلّسكى ، حتى ميكلانجلو . ومن كتّاب عظام

(بترارك ، ودانتى ، وماكيافيلّى . وجيتشار دينى) وتثرى بنبل آثارها وتوفيقها : الدومو (الكاتدرائية) وقصور أسرة ستروزى والمديتشى وبيتى ، والتصوير « ألافريسكا » ، على جدران دير سان ماركو وفى مصلى الأسبانيول . وهى مدينة زهر « الليلك الأحمر » ، عاصمة الفنون والمال والأعمال . لقد كانت فلورنسا أهم مقر لحضارة أوربية فى طريق التجديد .

فالا (لورنزو) :

ولد عام ١٤٠٧ وتوفى ١٤٥٧ ، وهو واحد من مقيمى الهيومانزم . قدم لهيومانية إيراسم ، وعاش فى نابولى سنة ١٤٣٧ ، ثم استقر فى روما حيث عينه البابا سكرتيرًا رسوليًا . كان ينكر فلسفة أرسطو ، وينقد توماس الإكوينى لإهماله اللغة اليونانية . وكان الطلبة فى القرن السادس عشر يدرسون بلاغة اللاتينية فى مؤلفاته ، وهو الذى صَحّحَ أخطاء « الفولجات » (الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) وفالا هو الذى أثبت زور الوثيقة التى قيل بأن الإمبراطور قسطنطين وهبها للبابا ؛ لينقل إليه السلطة المدنية . ولفالا كتاب كبير باللاتينية (١٤٣٩) ينعى فيه على التقشف والزهد والتنسك بصفته « بطولة » العصر الوسيط . هذا الرجل العظيم إذن هو من أهم من أقاموا الهيومانية بمعناها الإنسانى الكامل الصادق فى كل مكان وزمان .

فيروكيو (أندريا دى ميكيلى) :

من مواليد فلورنسا ١٤٣٥ – توفى بفينسيا ١٤٨٨ . قدراته الفنية المتعددة صورة أولى للبوناردو دا فنشى . كان مصورًا ، نحاتًا ، صائغًا ، يعنى بأنواع الهندسة ، وبالموسيقى ، والعمارة ، بل بالفلسفة . كان فى النحت الباحث المفسر لتركيبات المواضيع التى عالجها من قبله النحات العظيم دوناتِلّوز من أعمال فيروكيو تمثال « داڤيد » ، وتمثال الفارس الكوندوتييرى (قائد المرتزقة) « كوليونى » « فقد شاء أن يصبح دونا تلّو الأكمل ، قوته فى عزيمة البت ، يعنى فى نحته البرنزى بالكتلة والثقل ، وملء الفراغ ، الباحث فى البروز والتفريغ عن حركة الضوء والظل (شاستيل الناقد الفنى الشهير فى عصرنا) قيمته التعليمية الكبرى فى عدد الفنانين العظام الذين عملوا بمرسمه ، ومن بينهم المصور بيروجينو ، ولورنزوكريدى ، وعظيم العظماء ليوناردو داڤينشى الذى تتلمذ عليه ، وكان مساعدًا له مدى أربعة عشر عامًا .

القسطنطينية :

كانت تنقسم اسطنبول إلى ثلاثة قطاعات وأرباض : القطاع الأول على القرن الذهبى . يحده سور ، وكانت جونة مستقر المدينة الإسلامية ، وبها عدد من المسيحيين (يونان وأرمن) ومن اليهود . أما على الشاطئ الشمالى فكانت « غلطة » ومن أرباضها « بيرا » وكانت قليلة السكان ، وغلطة كانت المدينة الأوربية . والقطاع الثالث هواسكودار (سكوتارى) ، وامتدادها (كاديكوى) وهى

« خلقدونيا » على البر الأسيوى لبوغاز البوسفور وبحر مرمرة .

امتدت أسوار القسطنطينية إلى ٢٠,٥ كيلو مترًا ، وبعد نصف قرن من الفتح العثمانى بلغ عدد سكانها ٢٥٠,٠٠٠ وارتفع العدد فى مطالع القرن السابع عشر فكان تعدادها من ستمائة إلى سبعمائة ألف ، المسيحيون واليهود فيها بلغوا ٤٢ ٪ . وظلت عاصمة السلطنة ، طوال القرنين : السادس عشر والسابع عشر ، أكثر مدن أوربا سكانًا .

روما :

سكانها فى ختام القرن الخامس عشر بلغوا نحو ثلاثين ألفًا . وفى عام ١٦٠٠ وصلوا إلى مائة ألف ، ويمكن أن يَصْدقَ القول بأن ذروة مجد فلورنسا كان فى القرن الخامس عشر – (الكوتروتشنتو) وذروة مجد روما – بل أبجادها – كان فى القرن السادس عشر (تشينكوبتشنتو) .. فهى التى جذبت إليها أعظم فنانى إيطاليا (باستثناء احتفاظ فينسيا بفنانيها) بل فنانين من خارج إيطاليا . وفى خاتمة الرينسانس كانت روما أجمل مدائن أوربا يمكن تأمل قيادتها الروحية للعالم الكاثوليكى ، فى القرن السادس عشر ، فهى مدينة نموذجية وأحد عناصر التحرك فى الحضارة الأوربية .

شارل الثامن :

نجل لويس الحادى عشر ، ولد عام ١٤٧٠ بمدينة امبواز (فرنسا) ارتقى العرش ١٤٨٣ وظل فيه حتى وفاته عام ١٤٩٨ .

وعندما قرر إثبات حق فرنسا فى مملكة نابولى اقتحم إيطاليا فاتحًا ، سنة ١٤٩٤ ، استولى على فلورنسا وبلغ نابولى سنة ١٤٩٥ . وفى العام ذاته اضطر للتقهقر والعودة إلى فرنسا بتهديد من حلف البندقية ، **كان عهده بدء الحروب داخل إيطاليا** .

تشيلّيني (بنفنوتو) :

ولد فى فلورنسا (١٥٠٠) سافر إلى روما واشتغل بالصياغة ، وانتهى أمره إلى هناك بتهمة القتل – نتيجة مبارزة – وأودع السجن حتى أنقذه ملك فرنسا فرانسوا الأول باستدعائه إلى قصره (١٥٣٠ – ١٥٤٥) ومن أعماله هناك حفرية بارزة تصور (جنية الماء) . كان موضعها حديقة قصر فونتنلبو . ثم نقلت منه إلى متحف اللُّوفْر « وملاحته » المشهورة لفرانسو الأول ، وهى موجودة الآن بمتحف ڤينا . كان الفنانون يسخرون من تشيلّيني بوصفه نحّاتًا مبتدئًا . فحاول أن يبرهن لهم على أنه مثّال قادر على إبداع أعمال تذكر بدوناتلّو وميكلانجلو وكان على حق فى تمثاله « برسيوس » المقام فى « لوجيا » الحرس بفلورنسا فهذا التمثال أعظم أعماله . وقرأت منذ أكثر من ثلاثين سنة مذكرات تشيلّيني ، ومابرحت حيةً تقرأ إلى اليوم . تصوير كامل لحياته ومغامراته ، ولرجال ونساء عصر الرينسانس . توفى فى فلورنسا (١٥٧١) . [أعدت قراءتها سنة ١٩٨٢]

تربية الماشية :

تأخر إنتاج اللحوم واللبن فى الغرب ، إبّان عصر الرينسانس ،

ولكن تقدمت فى الوقت ذاته تربية الخراف للغذاء فى المراعى الرومانية ، وللصوف فى إنجلترا ، وأسبانيا .

التوابل :

لزومها للطعام والصيدلة أدخلها فى النمو التجارى بين حاجة المغرب إلى المشرق . وقد أدى هذا النشاط إلى الإهتمام ببلوغ مصادر التوابل ذاتها بالسفر إليها ، وذلك أدى إلى تأصيل البرتغاليين ، ثم أهل الأراضى الواطئة فى آسيا . وفى القرن السادس عشر تمهد المسلك التقليدى عن طريق الإسكندرية أو طرابلس الشام ، وعندما اتسعت المباريات تحول البرتغاليون فى إتخاذ طريقهم إلى آسيا بالطواف حول أفريقيا . وتغلّب نشاط أهل الأراضى الواطئة فى القرن السابع عشر على نشاط البرتغال .

التسامح الدينى :

هو ميراث الهيومانزم : نقولا دى كوبس ، وإيراسم ، ورابليه ، والبروتستانت حاولوا إفهامنا أننا مخلوقات الرب نطيع أخلاقيات ديننا . والأديان واحدة أو متقاربة فى الناحية غير العقائدية . لأنها تختص بالوحدة الأخلاقية فى كل إنسان فاضل ، بصرف النظر عن مراسيم عبادته . ولم ينجح البروتستانت فى هذا بسبب تعنت الكثلكة التى يتحكم فى شئونها قَيِّمٌ كبير ، وكانت الحروب الدينية نتيجة الخلافات العقائدية ، تتطلب من إنسان العصر التنديد بها .

تنظيم المدن (الأوربانزم) :

كانت مدن العصر الوسيط ضيقة خانقة . والرينسانس الذى درس الخرائب الرومانية و « الخطة » الأفلاطونية للمدينة المثالية ، (الأوربانزم) وفكر المهندسون والفلاسفة ورجال الدولة وجهدوا فى بلوغ معنى المدينة ، وهل تكون كطاولة « الضَّاما » ؟ وكان رأى العسكريين والفلاسفة أنصار المدينة المستديرة حول مركز بارح يمثل وسطها فى اتساعه وزخرفة أبنيته ويسر الوصول إليه من كل مكان بأطراف المدينة .

obeikandl.com

ملحقات إضافية

بترارك أول الهيومانيين

أشرت فى كتابى إلى زيارة لموضع فى جنوب فرنسا (البروفانص) ، عاش فيه بترارك حقبة من حياته . ولقد عثرت فى أوراق قديمة لى من عام ١٩٢٦ على ذكرياتى من تلك الرحلة ، أستأذن فى نقل بعض ما جاء فيها . يوصف بترارك فى الفصل الخاص به بأول الهيومانيين ، وأضيف هنا أن آخرين اعتبروه أول رجل جديد . وكانت رحلتنا إلى البروفانص - أنا والمرحومة قرينتى - جعلت مركزها مدينة أفنيون ، نخرج عنها فى رحلات تستغرق اليوم ونعود إليها فى المساء . وفى واحدة من هذه الرحلات اتجهنا إلى بلدة تسمى « إيل - سور - سورج » ووصفها بالجزيرة (إيل) ، مرجعه خمسة فروع لنهر السورج تقطعها ، مما يكسب البلدة جمالاً ولطفًا لثراء خضرتها ، ومسالكها المزينة بأشجار « اليلاتان » ، وهو الدُّلب .

ينابيع فوكلوز :

ركن من أرض « الميدى » (الجنوب الفرنسى) زاره بترارك فى صباه ، فصاح إذ رأى المنظر الساحر : « لو أنى أعطيت حرية

الاختيار ، فسوف أراني مفضلا هذا المأوى الريفي » .

ومضت الأعوام ، وغدا الصبي رجلا أوفد من فلورنسا برسالة إلى بابا أڤنيون [في سنوات الانشقاق البابوي الذي قضى بقيام بابا في أڤنيون ، وبابا في روما] . وفي هذه المدينة ، ذات صباح يوم من أيام الأحد ، وفي كنيسة سانت كلير ، شاهد پترارك فتاة من النبلاء تصلي بخشوع . وكانت هذه الرؤية مثارًا لإحساس شاعر إيطاليا الخالد بتباريح الهوى . أحب الفتاة المجهولة حبًا معروفًا عند أهل العصر الوسيط ، وهو الحب الممتزج بإحساس ديني ، هو أقرب المشاعر إلى العبادة . وپترارك رجل دين [قس] يؤلمه أن يشعر بلهيب العشق الذي يمكن أن يهدد عذرية الحب ، فيتحول إلى رغبة أثيمة . فكان پترارك يهرب من الإحساس الخاطئ ، فيكتم عاطفته صارخًا : « واحسرتاه ! متى يجيء اليوم الذي أراني فيه ناجيًا من هذه النوازع الحارة ، والعذاب المقيم ! » .

ثم حدث أن انتقلت الفتاة إلى الرفيق الأعلى ، فتحول الحب العذري إلى تعبد صميم على أمل يوم اللقاء بين يدي الخالق سبحانه .

هذه هي قصة غرام الشاعر بالفتاة « لاورا » . تذكر كلمة صباه : « لو أنني أعطيت حرية اختيار إقامتي .. إلخ » . فسار پترارك إلى ينابيع ڤوكلوز ، يبث وجده تلك الصخور ، ويفجر أشعاره كأنها مياه السورج خارجه من بطن الجبل .

كانت رحلتنا من أڤنيون إلى ڤوكلوز تمتد إلى ثلاثين كيلو مترا ،

ليست شيئًا مذكورًا فى مقابل حجيج إلى مأوى الشاعر ، مؤلف الصوتيات والكانزونى إلى لاورا الحية ، ولاورا المتوفاة . وارتأينا أن نقطع المسافة بالدراجات ، نتمتع بجمال الطريق ، ونشاهد المواضع الهامة عليه .

ولنتجه الآن فى طريقنا إلى الينابيع التاريخية ، وقد حدث تغير فى طبيعة الأرض ، والمناظر المحيطة بها بعد خروجنا من آخر قرية فى طريقنا . وبدأ المسار فى الارتفاع ، وانبسط السهل من الجانبين تزينه أشجار السرو والزيتون والدلب والحور ، ويواجهنا على البعد جبل ڤانتوه ، يغطى الشجر سطحه فيما عدا بقاع تنعكس عليها أشعة الشمس ، فتكسوها لونًا أبيض مشوبًا بالصُّفرة تتزايد كلما آذنت الشمس بالمغيب .

وهكذا سرنا صعدًا إلى ينابيع ڤوكلوز ، حتى بلغنا ركنًا للدراجتين . ودرجنا على الإقدام صعدًا فى طريق محفوف بأشجار الزيتون .

وهذه الينابيع هى منطلق نهر السورج ، أحد فروع نهر الرون . مياه السورج تخرج من عيون بين فرجات الصخور ، فى فوارات متدفقة ، تجتمع لتكوّن المجرى الضيق الذى حاذيناه منذ مغادرتنا لآخر قرية فى طريقنا من أڤنيون .

ارتقينا إلى جوار الينابيع ، مقودين بصوت المياه المتدفقة . وقدمت لنا إحدى البائعات فرعين من أزهار اللواندة . وعلى شاطئ

النهر مقهى يحمل اسم بترارك ولاورا ، ويقال بأنه مقام فى مكان المنزل الذى عاش فيه الشاعر . وفوق المقهى لوحة عليها كتابة تقول بأن الشاعر ألف فى هذا الموضع الصورنتا رقم ١٢٩ .

والآن بلغنا مجموعة من الصخور ينساب فوقها ، ومن حواليها الماء مزيدًا . فما أجمل زرقة الماء مختلطة ببياض الضوء ، كل ذلك فوق حلقة من الصخور السوداء . بعضها لا تصل إليه المياه – فحتى فى الصيف ، فصل الجفاف – تغطيها الطحالب فى خضرة تشرح الفؤاد .

ما هى تلك العيون السحرية التى تروى واديًا بالماء ؟ وما هى تلك الكهوف فى بطن الجبل التى تمد نهرًا يروى وحده ٢١٦٥ هكتارًا من الأرض حتى يبلغ نهر الرون ؟ وما هى تلك القوة التى تحرك تروس ١٦٠ معملا منتشرًا على شواطئ السورج ؟ .

إلى هنا جاء بترارك متيما بلاورا ، هاربًا من بابوات أفنيون . إيه يا ينبوع الحياة والشعر والتاريخ جئت إليك من بلاد نائية ، لم أعرف عنك شيئًا ، ولم أسمع باسمك من قبل . إنها لواحدة من مصادفات الحياة السعيدة قربتنى منك ! .

وإذا كان دانتى اليجيرى ، ابن العصر الوسيط أبعد من أن يوصف بعامل فى ظهور حركة « الأحياء » فإن بترارك يوصف حقًا بأول الهيومانيين ، يمثل الإنسان الجديد لعصر جديد . أهم

الشخصيات فى تاريخ الأدب الايطالى الجديد ، فكاد حبه العذرى للاورا مبعث خلود الاثنين .

وإذا كانت شهرته الأدبية مؤسسة على صونتاته وكانزوناته مكتوبة باللغة الايطالية ، فإن مؤلفاته باللغة اللاتينية الفصحى هى التى أذاعت شهرته فى حياته . على أن الرجل أهم فى ذاته وروحه ، وهى التى تقربنا إلى عصرنا الحاضر فى صورة غرامه ، بل فى تفرده بنظرته إلى حياته الداخلية . ويظهر ذلك فى رسائله الخاصة ، وفى اعترافاته ، وفى سيرته الشخصية التى سماها « رسالته إلى الأعقاب » . وفيها كانت عنايته بدخيلته ، ونمو إدراكه العقلانى أكثر من سرد وقائع لا علاقة لها إلا بخارجه ، لا بروحه .

أرسل إلى صديق عزيز رسالة يقول فيها – وكان قد بلغ الواحد بعد الثلاثين من عمره – بأنه صعد وشقيقه إلى قمة جبل قانتوه ، وشاهد من ذلك المرتفع ، السحاب والجبال والبحر . وفكر فى البعد السحيق لبلاده . وإذا به يخرج من جيبه كتاب « اعترافات القديس أغوسطين » . فتح الكتاب دون هدف ، وطالع ما طلع له فى « البخت » : « يذهب الناس للإعجاب بمرتفعات الجبال ، واندفاع آذى البحر فى عنفها العاصف ، واتساع الأنهار ، وامتداد الأقيانوس ، وحركة النجوم ، وينسون أنفسهم » . أقفل الكتاب ، وغضب من اعتنائه بالأرضيات ، فى حين كان الفلاسفة الوثنيون أنفسهم يعلمونه معنى الروح وقيمتها ، وعظمتها ، وهو معترف بتطلعه إلى المجد ، فهذا إحساس جديد نشأ مع الرينسانس » ، ولم يك

معهودًا فى العصر الوسيط . أما من ناحية وسوداوية الحزن ، ونار العشق فهذا فى رأينا من أحاسيس القرن التاسع عشر ، تحليله لها يمكن أن يجئ به شاب من هذا القرن الأخير .

حظى بترارك بأقصى درجات المجد فى حياته ، وفى كل عام يوم عيد الميلاد كان يفد عليه . وفد من أساتذة جامعة پادوا ، وطلبتها ، حاملين الشموع الموقدة ، ونافخين فى الصور .

وأسمى مراتب التبجيل حدث فى استقباله بالكابتول الرومانى فى أبريل عام ١٣٤١ وتيارت جامعة باريس ، وبلدية روما فى تتويج الشاعر على قصائده اللاتينية .

ارتقى بترارك مبنى الكابتول ، وسط هتاف الجماهير . وتوّجه عضو الشيوخ عن مدينة روما ، بفروع الغار . وتوجه الشاعر المتوج من الكابتول إلى كنيسة القديس بطرس (الڤاتيكان) حيث وضع تاج الغار تذكارًا مقدسًا

حينما أشرف من هذه الآجام الوحشية على هذا السّهل المنبسط ، حيث ولدت تلك التى ملكت فؤادى فى عنفوانه ، وزهرة شبابه ، أفعم الجو بآهاتى .

ارتفعت إلى السماء وتركتنى برحيلها المفاجئ . اتفقدها عبثًا فى ذلك البعد ؛ فأنْضَحُ بدموعى كل ما حولى .

ليس فى الوادى من عشب ، ولا فى الآجام من صخر ، ليس من عسلوج ؛ ولا من ورق أخضر فى هذه السهول ، ولا من أزاهير ، ولا من حشائش فى هذه الأصقاع ، وليس فى هذه الينابيع من نقطة ماء ، ولا فى هذا الغاب من حيوان ، لا يعرف فداحة الألم الذى حل بى فى فقدك ، يا حبيبتى .

من أول يوم فى رحيل سيدتى . أحاطها الملائكة المختارون ، والأرواح الهائمة التى تسكن السماء ، بالإعجاب وبالعاطفة القدسية .

ما هذا الضياء ، وما هذا الحسن الجديد ؟ تحدثوا به فيما بينهم على مدى الزمان ؛ عن مخلوق بهذا الجمال ، ارتفع من هذه الدنيا الضائعة إلى المقر الأعلى .

إنها لسعيدة بتغيير مسكنها ، شاعرة بمستواها الأكمل .

ولكنها تتلفت من آونة لأخرى ، وكأنها تنتظر .

وأنا أرفع إلى السماء كل شوق وتوق ، وكل أفكارى ، إذ أنصت إليها تتوسل إلى بأن أغذ السير ، وأوسع الخُطى [لألحق بها] .

بوكاتشيو

يصغر پترارك بسنوات قليلة ، ويزامله فى نشأة الهيومانية ، وكان على اتصال دائم بزميله الأكبر ، يتبادلان الرسائل . وكانت له عشيقة باسم « فياميتّا » أسعدته خمسة عشر عامًا .

لم يتميز بشعره ، فقد كان ناثرًا بليغًا . وما فتىء كتابه باللغة الإيطالية مقروءا إلى اليوم فى العالم المتمدن . وله مؤلفات باللغة اللاتينية منها كتاب عن أرباب اليونان وأساطيرهم ، وكتاب عن شهيرات النساء ، يبدأ بأم البشر حواء ، وينتهى بجنّا ملكة نابولى : واحد وسبعون سيدة من العصر الكلاسيكى ، وسبع سيدات من العصر الوسيط .

واخترت لك واحدة من حكايات كتابه الأشهر « الديكاميرون » ، قصة قصيرة اتخذها المؤلف الدرامى الألمانى « ليسنج » Lessing موضوعًا لمسرحية بعنوان « ناتان الحكيم » .

الأقصوصة الثالثة

« الديكاميرون »

بقلم

جيرفانى بوكاتشيو

ثلاثة خواتم وثلاث ديانات

كان صلاح الدين الأيوبى رجلاً عظيمًا ، فائق الشجاعة ، ارتفع بكفاءته إلى سلطنة مصر.. وحقق انتصارات لامعة على الصليبيين . وكلفته حروبه مالا كثيرًا ، بالإضافة إلى سماحته وكرمه . فأفقر بيت المال فى وقت احتياجه عاجلا لمبلغ كبير. فتذكر يهوديًا ثريًا يعيش فى الإسكندرية ، اسمه ملكى صيدق ، يقرض ذوى الحاجة مقابل فوائد فاحشة . وارتأى صلاح الدين الاستعانة به للخروج من المأزق . وكان اليهودى بخيلا بوقته ، وبماله .

السلطان لا يريد العنف فى مطالبته بقرض ، والمرابى لن يتخلى بيسر عن أمواله . فلجأ صلاح الدين إلى وسيلة تحقق مرامه ، وهى استدعاؤه إلى « بابلون » عاصمة مصر فى ذلك الوقت .

استقبل ملكى صيدق فى القصر ، وأجلسه إلى جانبه فى بشاشة ، وقال له : « إن أشخاصًا كثيرين ياملكى تحدثوا إلى عن حكمتك ، وعلمك ، وخاصة فى اللاهوت . وعندى لك سؤال أرجو أن تجيبنى عنه : ما رأيك فى الأديان الثلاثة ، أيها المفضّل والصحيح ؟ أهو

العبرية أم الإسلام . أم المسيحية ؟ .

أدرك اليهودى صنو الحذر والحكمة ، أن السلطان ينصب له شركًا ، وأنه لو تقدم بتفضيل واحد منها ، فمعنى ذلك أنه أخرق . فلم يفقد إتزانه ، وبحضور ذهن عجيب ، قال للسلطان :

سؤالك يا مولاى ، وقد تفضلت وطلبت الاجابة عنه ، يجمع بين الحسن والأهمية . ولكى أجيبك ، يا مولاى ، استسمحك بادئ ذى بدء ، بسرد حكاية صغيرة :

« تناهى إلى خبر عن رجل من بلد لا أعرفه ، وهو أنه من الأثرياء ، وذوى المقام ، يحتفظ ضمن جواهره بخاتم غاية فى الجمال ، ولا يقدر بمال ، فسعى إلى وسيلة الاحتفاظ بهذا الكنز النادر ، بتورثيه إلى واحد من أولاده ، ليبقى تذكارًا له بعد وفاته . فوضع فى وصيته أن من يجد الخاتم فى أحرازه ، يغدو وريثى الوحيد . ويتعين عليه أن يحتفظ به ليبقى فى الأسرة ، وأن يكون لوريثه من يجده ضمن أحرازه ، ليصنع به مثلما صنعت .

وبهذا تتابعت الوصايا فى أحفاده بنفس الإجراء . حتى جاء حفيد أخلف ثلاثة أولاد ، تميزوا كلهم بالعطف والفضائل ، والنباهة ، وحسن الملامح ، والطاعة للوالدين . فكان حب الأب لهم بمساوات كاملة . فاضطر أن يعد كل منهم – على حدة ! – بأحقيته فى الخاتم الأوحد . وتقدم به العمر ، وهو فى حيرة مما يصنع لإرضائهم حتى انتهى به العطف إلى وسيلة لا ثانى لها :

ذهب إلى« جواهرجى» اشتهر بفنه ، وطلب منه أن يصنع خاتمين صورة طبق الأصل للخاتم الأول . وأجاد الصائغ الفنان فى صنعه ، إلى درجة أن الأب الشيخ لم يستطع التمييز بين الأصل والمحاكاة .

بعد وفاة الأب ، بدأ الخلاف بين الأشقاء . فكل منهم يرى أن الإرث من حقه لتكون له الرياسة على شقيقيه . وانتهى بهم الأمر إلى عرض الخواتم الثلاثة على خبير . فقطع بأنها متساوية ، ولا تمييز بينها . فهى إذن قضية لا تنتهى إلى نتيجة .. » .

وكذا الأمر يا مولاى فى شرائع الرب التى أنزلها على شعوبه الثلاثة ، كل واحد منها يعتبر شعبه مالكًا شريعته الحقة ، يعمل بسنتها وفرائضها ، ومن المحال أن نعرف أى الثلاثة على حق فيما يؤمن به . والشأن فى سؤال عظمة السلطان يظل معلقًا دون قرار . ويبدو لى أنه باق على هذا المنوال ، إلى ماشاء الرب سبحانه .

وتبين لصلاح الدين فى هذه الإجابة أن اليهودى تخلّص بلباقة من الفخ الذى نُصب له . وأدرك السلطان أن لا جدوى من إعداد فخ آخر . ولم يجد مناصًا من الانفتاح بمطالبه دون مواربة . أبلغه بحاجة بيت المال .. إلى المال ، فهو يطالبه بسلفة هامة .. وقد أفهمه فى الوقت ذاته بما كان فى قدرته أن يصنع معه لو أن إجابته على استفهامه جاءت أقل حكمة .

وتملك الكرم ذات اليهودى . فأقرض السلطان كافة ما طلبه منه . وقدر السلطان موقف ملكى صيدق حق قدره أو شكره على

صنيعه . ولم يكتف فيما بعد بوفاء الدين ، بل أغدق على اليهودى بالهدايا ، واحتفظ به أمينًا جديرًا بمكانته ، بل شرفه دائمًا بصداقته .

* * *

هذه الحكاية ، تأليف بوكاتشيو Pocaccio صديق الشاعر پترارك Pitrark هى التى أشير إليها لتضاف إلى مكارم صلاح الدين يوسف بطل أبطال الحرب الصليبية فى الأرض المقدسة ، فهو الذى أعاد بيت المقدس إلى أهله .

ومثلها ما صنعه مع الصليبى البريطانى قلب الأسد . عندما أوفد إليه فى مرضه طبيبه الخاص ، الذى تولى علاجه . ومثلها مجرد قبوله بالصلح مع أعدائه .

قارن هذا بما قاله البابا مؤنبًا للإمبراطور فريدريك الثانى من أسرة الهوهنشتاوفن عندما أجرى الصلح مع المسلمين فى الأرض المقدسة :

« الصليبى سافر للحرب ، لا ليعقد سلامًا » .